ورشة المعارف
THE KNOWLEDGE WORKSHOP

في رفقة الفقدان

التاريخ الشفوي والإرث النسوي

فريق التحرير:

ديمة قائدبيه

صفاء ط.

تالة حسن

منى بيبي

ترجمة:

ديانا عبّاني

غدير سويدان

يمنى مروّة

تدقيق لغوي:

رامي قطّار

فريق المراجعة:

رنا عيسى

ريما رنتيسي

فريق التصميم:

يمان طعمة

ريمة حمود

حقوق النشر محفوظة - ورشة المعارف ٢٠٢٣

https://www.alwarsha.org/

تمت الطباعة في المطبعة العربية، بيروت

إن الفكر والآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعكس بالضرورة نظرة وآراء ورشة المعارف.

هذه الاصدارة مموّلة من المساعدات الشعبية النروجية و كفينا تل كفينا و ماما كاش وصندوق المساواة.

إن محتوى هذه الاصدارة يعبّر عن آراء المؤلفات ولا يمثّل بالضرورة آراء المساعدات الشعبية النروجية أو كفينا تل كفينا أو ماما كاش أو صندوق المساواة.

The content of this publication is the responsibility of the authors and does not necessarily reflect the positions of the Norwegian People's Aid, or Kvinna till Kvinna, or Mama Cash, or Equality Fund.

ISBN: 978-9953-0-5819-1

قائمة المحتوى

٦ **مقدّمة**
فريق التحرير

٤٠ **تجميع قصة إيتل عدنان**
محادثات وقراءات في بيروت
نـارود سـروجـيـان

٦٢ **مقابلات التاريخ الشفوي**
في رفقة إيتل عدنان

٦٤ الرحيل
مقابلة مع نوال

٧٦ استجواب الحدود
مقابلة مع سارة مراد

٨٦ **عن نادين والأمومة والفقد النسوي**
فاطمـة فـؤاد

١٠٤ **نادين التي نتذكرها**
صـفـاء ط

١٢٤ **مقابلات التاريخ الشفوي**
في رفقة نـادين جـونـي

١٢٦ ٢٤
مقابلة مع ندى جونـي

١٣٦ لا الإحتلال راح ولا نادين عاشت
مقابلة مع نهاية قواسمي

مُقَدِّمَة

فريق التحرير

الموت والإرث النسوي في سنوات الانهيار

ديمة قائدبيه

يعيش العمل النسوي في دنيا التغيير: نسعى إلى تغيير السياسات والممارسات والمواقف والأنظمة؛ نضغط من أجل تحقيق العدالة للضحايا والناجيات من أشكال العنف المتشابكة؛ نحاول دومًا تخيّل إمكانيات جديدة لتجسيد حيوات يمكننا فيها التمتّع بالأمان والقوة والمتعة في مختلف الأجساد والسياقات التاريخية والهويات التي نعيشها؛ نكافح لتأمين وصول مجتمعاتنا إلى الموارد؛ نعيد كتابة التاريخ حتى نتمكّن من العودة إلى الوجود في تلك السرديات آنذاك، الآن، وإلى الأبد. نفتح المجال لإعادة تشكيل الكلمات والمساحات لجعلها أكثر ترحيبًا بنا وبمن نحن عليه؛ نشرّع معنى "نحن" ومن تشمل.[1]

لكننا دائمًا متجذرات في شيء ثابت، عالمي. الموت والتغيير. التأقلم والمقاومة.

ماذا يعني أن ندرك وأن نتذكّر مرارًا وتكرارًا أنَّ الجانبَين الأكثر ثباتًا في حياتنا هما الموت والتغيير؟
ما الذي يتغير فينا وفي عملنا عندما يكون تركيزنا على البقاء؟ هو همٌّ للبعض أكثر من غيره، بالتأكيد. ومع ذلك، أصبح البقاء والخسارة واقعًا جماعيًّا، لا سيما في بلد ينهار أكثر كل يوم، وفي منطقة تمزقها وتفككها الاحتلالات والأنظمة الديكتاتورية المتجذّرة والحروب، وفي كوكب يحرقه الاستغلال البشري ويعزله رعب الناس من بعضهم ومن ضعفهم.

ماذا يبقى منّا حين نرحل، عالمات أننا سنرحل؟ ما الذي في قدرتنا، وبالتالي مسؤوليتنا،

[1] شكر خاص لرزان غزاوي وجيهان بسيسو على تعليقاتهما على مسودات سابقة لهذا الجزء من المقدمة.

لتشكيله؟ وأين نسلّم ونتخلّى عن تحكّمنا بما سيحصل: إن كانت قصصنا وأعمالنا ستُذكر، فكيف سيستعملها الآخرون والأخريات وماذا سيكون تأثيرها في العالم؟ ماذا سنفعل بشكل مختلف مع هذا الإدراك بأننا سنموت ونتغير ونتفكك؟ لا مفر من الخوف والألم، ولكن هناك حياة لنعيشها لا تقوم على "الطحش" الهجومي أو التهرّب المسترضي. هناك دور لنؤدّيه، من يستطيع منّا، ومن منّا كانت هنا ورأت هذه التغييرات السابقة، في مشاركة ما نحمله في تاريخنا، ولإفساح المجال للمستقبل الذي يمكننا تشكيله.

وهنا يدخل الإرث إلى المحادثة.

استـــراتيـجـيـة الإرث

الإرث ليس ترفًا، لإعادة استخدام كلمات أودري لورد[٢] بل يتعلق باتخاذ قرارات استراتيجية حول ما نريد إنشاءه ونقله، وحول القصص والأدوات والروابط والعلاقات مع الناس والبيئة.

كل شيء يمكن أن يتغير وسوف يتغير،[٣] و سيتم سماع قصصنا بشكل مختلف. ولكن عند التفكير في الإرث، من المرجح أن تصبح دروسًا لأوقات أخرى. يمكن أن تصبح الذكرى التي نحتاجها بأننا لا نبدأ من جديد في كل مرة، على الرغم من أنه سيكون هناك دائمًا المزيد للقيام به والمزيد من القضايا الجديدة والمستمرة التي يجب معالجتها. سنقوم بالأرشفة وسوف نوثق وسنجد طرقًا لنقل هذا الأرشيف والوثـائق إلى المستقبل معنا.

بعبارة أخرى، لا يتعلّق الإرث بالأيقونات، وهو ليس مجرد هدف فردي. إنه عمل التذكّر والبحث عن القصص، والقدرة على حفظها وبناء الروابط التي تفتح مساحة لها.

---

[٢] **والعبارة الأصلية لأودري لورد هي: الشعر ليس ترفًا** poetry is not a luxury.

[٣] **وأستمد فكرة حتمية التغيير من الكاتبة أوكتافيا باتلر وعبارة** God is change **(الله هو التغيير) في كتابها** Parable of the Sower.

وإيجاد سبل لإعادة تشكيلها وتقديمها. الإرث هو الرابط بين الأجيال. إنه العمل البطيء لبناء علاقات عبر الزمن والسياسة والخبرة. الإرث يساعدنا على الشفاء من الجروح التي نتوارثها عبر الأجيال—فهذه إرثنا أيضًا— ويحثّنا على مواصلة تشكيل حبنا وحياتنا بطريقة أفضل قليلاً من تلك التي شكّلتنا بها هذه الجروح.

وهنا المفارقة: نحن نتوارث الجروح لكن هذا الإرث يحمل خبرات في التعافي وإشارات نحو المخارج من دوامات العنف والكره.

الإرث يساعدنا على تهدئة الرهبة والرعب من الموت والخسارة والحداد حتى قبل رحيل أحبائنا. الإرث هو التاريخ، نعيد كتابته ونتذكّره ويتذكر مجموعاتنا وحيواتنا المختلفة. هو تسليح المخاوف واستعمالها لمصلحتنا: الخوف من الموت ومن الشيخوخة، ومن كيفيّة معاملة الكبار في السن، وكيفيّة النّسيان بهذه السرعة، والخوف من المستقبل القاتم، وإضفاء معنى على كل ما نمرّ به. هل يمكن للإرث أن ينقذ الكويريات والكويريين اللواتي/الّذين ليس لديهنّ/هم عائلة ولا دعم اجتماعي مع تقدمهنّ/هم في السن؟ هل يمكن للإرث أن يعيد توجيهنا إلى السير نحو المزيد من الانهيار والاقتتال الداخلي والاضطرار إلى البدء من جديد وإعادة تجميع أشلاء حياتنا وآمالنا كل فترة؟ هل يمكن للإرث أن يشفي شيئًا فينا؟

لماذا نادين جوني وإيتل عدنان؟

هذه هي التأملات التي دفعت هذا الكتاب إلى حيّز الوجود: الموت والخسارة، وما نتركه وراءنا والذي يمكن أن يكون مفيدًا؛ أهمية التوثيق والأرشفة؛ البحث عن إرث النسويات والناشطات لنفهم بشكل أوضح ما تركنه لنا وكيف نستعمله اليوم، وتوسيع ما تعنيه التواريخ والقصص النسوية: من يكتبها ومن يستمع إليها وما الشكل الذي تتّخذه.
هذه الإصدارة هي محاولتنا لسرد قصص متجذرة في ما هو ثابت: في الخسارة والموت والتغيير، وفي أعمال التذكّر والبقاء من خلال القصص. الفصول القادمة هي مساع للتعامل مع الخسارة، ومع من وما تبقّى: الأصدقاء، والعائلات، والأحبّاء، والمجتمعات

التي ينتمون إليها والذكريات. هي قصص وأعمال. وبالتالي ما ستقرأنه/أونه في الصفحات القادمة هو عن امرأتين والأوقات التي عاشتا فيها، ولكنه أيضًا عن هذه اللحظة التي نبحث ونتذكّر ونكتب فيها.

لماذا نادين جوني وإيتل عدنان، الشّخصيّتان الأساسيّتان في هذا الكتاب؟

هناك سببان أتناولهما هنا (وأسباب أخرى تتوضّح في الجزءَين التاليين من هذه المقدمة): السبب الأول كان سياقيًا و'مصادفة'، وهو يعكس الموضوع الذي نعمل عليه، إذ أدّى الموت دوره في توجيهنا نحو من نتذكّر حين بدأنا في تصوّر هذا الكتاب. والسبب الثاني هو توسيع المواقع التي تغذّي كتاباتنا للتاريخ النسوي، لتشمل أكثر من مسار واحد تشغله شخصيات معينة.

بدأنا العمل على هذا الكتاب في أوائل العام ٢٠٢٢، مع نيّة في استكشاف الإرث والأرشيف النسوي وممارسة عملية تذكّر النسويات اللواتي خسرناهنَّ في السنوات الماضية. في البداية، كنّا نفكر في شخصيات نسوية مختلفة من اللواتي عشنَ فترات تاريخية مختلفة في لبنان. ولأنَّ حياة نادين جوني وموتها تركا تأثيرهما على جميع العاملات في ورشة المعارف وعلى أصدقائنا وأقراننا، شعرنا بقوّة بأننا نريد أن نتذكّرها في هذا الكتاب. لقد كانت طريقتنا أن نتمعّن في الوسائل التي نسجت من خلالها نادين علاقات بين المجموعات والقضايا المختلفة. ولحسن حظنا، أبدت الباحثة فاطمة فؤاد الحماسة نفسها للغوص في إرث نادين.

فكّرنا في أسماء أخرى في ما بيننا وكنّا نعرضها على الباحثات اللواتي نقابلهنَّ، أسماء نسويات مثل وداد شختورة وأنيسة نجار وغيرهما.

كانت إيتل عدنان اقتراح الباحثة نارود سروجيان. وكانت فكرة مثيرة وغير متوقعة. لماذا أقول إنّها غير متوقعة؟

منذ عدة سنوات، عندما علمتُ بوفاة الكاتبة المصرية رضوى عاشور، شعرت بالرغبة -كما الكثيرات منّا- في شراء جميع رواياتها وكتبها وقراءتها. في إحدى مكتبات شارع

الحمرا، قال لي الرجل ذو الشعر الأبيض الذي كان يجلس بين كتبه: "صرنا منتمنّى الكتّاب يموتوا لحتّى الناس تفوق تشتري كتبهم".

هل كانت إيتل عدنان ستحضر في ذهن نارود بهذا الشكل الملموس لو أنها لم تمت منذ أشهر قليلة قبيل لقائنا معها؟ هل كنا، كفريق التحرير في ورشة المعارف، سنندفع بهذا الاهتمام في التركيز على شخصية لم تكن ناشطة مرتبطة بشكل مباشر و "على الأرض" بالحركات والنضالات السياسية في لبنان؟ لا أعلم. لكن الموت (ووسائل الإعلام) يعيدان إحياء رغبتنا في معرفة شخص لم يعد معنا، واكتشافه. كما أننا نعرف أنَّ من زمن ليس بعيدًا، لو أردنا البحث عن أي أثر للوجود الكويري، وبشكل خاص لوجود المثليات اللواتي لا يعشن في العار أو الحاجة إلى التبرير أو الدفاع عن علاقاتهنَّ، لوجدنا إيتل.

ثانيًا، في معظم مشاريعنا، نتعمّد أن نوسّع في بحثنا عن الأمكنة والأزمنة التي نفتّش فيها عن النسوية، وننوّع المواقع التي تغذّيها وتساهم في تشكيلها. نبحث عن الأوردة، الكبيرة والصغيرة، التي تضخ الحياة والإلهام في هذا الكائن الحي الذي هو النسوية. وكثيرًا ما اعترفت النسويات بالجدّات، والمتمردات، والفنانات، والمعلمات، والعاملات في المصانع، والساحرات، والمثليات كجزء من الطرق التي يسرنَ فيها الآن.

في العام ٢٠٢١، نشرنا كتاب "تسعينيات نسوية"، وهو كتاب عن لبنان في التسعينيات من منظور نسوي، وثّقنا فيه الحركة النسوية والتغييرات التي كانت تمر بها خلال ذلك العقد.[٤]

حين نقرأ في " تسعينيات نسوية" ما تشرحه النسويات اللواتي نشطن خلال تلك الفترة، يتضح أنَّ العديد منهنَّ يتذكرن مسارين متباينين سلكتهما النسويات في التسعينيات: أحدهما وصفنه بأنه يفتح المجال أمام سبل جديدة للحديث عن العنف ليشمل نساء من فئات اجتماعية مختلفة ويرفض أحادية التجارب والهويات النسائية؛ وآخر وصفنه بأنه أكثر تحفّظًا، لا يواجه السلطة ولا يكسر معظم القوالب الاجتماعية التي تضبط حيوات النساء وعملهنَّ. المسار الأول، كما تذكرته النسويات في التسعينيات، هو ما أوصلنا إلى الحركة النسوية التي نراها اليوم: ربما لم يحملن القضايا ذاتها وماطلن و/أو لم يتمكنَّ من خوض مواجهات حول الجنسانية والعنصرية، فتركن

[٤] تسعينيات نسوية، ورشة المعارف، 2021. https://www.alwarsha.org/blog-post/downloadfeminist90s

تلك المعارك لجيلنا (وبعضهنَّ يقـف معنا اليوم في هذه القضايا)، لكن بالنسبة إليهنَّ، فقد أعطى المسار الـذي سلكنـه مساحـة لحركتنا الشـابة لتقـوم في أوائل العقـد الأول مـن القـرن الحـادي والعشرين.

في السنوات الأولى من هذا القرن، في بداية تعرّفي إلى الحركة النسائية، لم نفرّق بين هذين المسارين لأننا لم نكن نعرف النسويات اللواتي سبقننا. فشرعنا في بناء مساحاتنا وعلاقاتنا ولغتنا الخاصة، وأعلنّا رفضنا لما هو قائم من مؤسسات ذات هياكل جامدة، وشكّكنا أيضًا في أساليبها التي ترتكز على تغيير القوانين، ولذلك تأسر نفسها في سردية ضيقة يقبلها الرجال في الحكم وفي المحاكم.

اليوم، ترى النسويات اللواتي عشن الحركة النسوية في التسعينيات أنفسهنَّ كسابقاتنا وأسلافنا، وأوافقهنَّ. ولكنني أرى أنَّ هذا حصل بعدما مسكنا بحاضرنا وما يمثله، وبعدما قبلننا وقبلن حاضرنا وموقعنا فيه. في البداية، لم يرين فينا ورثة لعملهنَّ ونضالهنَّ، ولم نعدّهنَّ كبارنا أو معلماتنا. لكن مع الوقت، بدأنا بالتعرّف إلى بعضنا وأصبحنا نرى بعضنا. هكذا نركّب التاريخ، من خلال هذه التفاعلات وعبر تشويه الجداول الزمنية المستقيمة: نحن خلفاء لأننا نعترف بأسلافنا. نفتح طرقًا لتاريخنا بقدر ما تفتح مَن سبقننا الطريق أمامنا.

وفي كتاب "تسعينيات نسوية"، كانت إيتل حاضرة كذلك مع حبّها للبحر ولزميلاتها الفنانات والكاتبات. خلال التسعينيات، عادت الحركة الفنية لتزدهر في بيروت. وأقيمت أنشطة سياسية خارج بيروت. ظهرت مبادرات وإن كانت غير مُمأسسة أو غير موثّقة. ومثلما تذكرنا إيتل بالبحر وحب النساء والكتابة والفن كجزء من الإرث النسوي، تذكرنا نادين جوني في هذا الكتاب بألّا نعلق في هياكل شديدة الصلابة، وبأن نعيد الاحتجاج إلى أبواب المؤسسات الدينية.

ولكـن الأمــر لا يتعلـق فقــط بنـاديـن وإيتـل

اخترنا أن نتذكر النساء والنسويات والفنانات والناشطات اللواتي لم يعدن معنا، ولكن أيضًا قصص اللواتي/الّذين بقين/بقوا، من أفراد عائلاتهنَّ، وأصدقائهنَّ وصديقاتهنَّ، وزميلاتهنَّ في العمل، والأشخاص، والمساحات التي تأثرت بهنَّ/م. وكما تشرح تالة فـي القسـم التالي من هذه المقدّمـة، تواكـب هذه العمليـة مجموعـة من التحديات. من التحديات التي رأينا فاطمة ونارود تواجهانها وتتخطيانها هو التركيز على الغياب والحضور في آن، وكيفية التحدث عن نادين وإيتل من دون التحدث عن نادين وإيتل فحسب. أصبحت هاتان الشخصيتان قنوات لمزيد من القصص عن أولئك اللواتي ما زلن هنا، يعشن حياتهنَّ، يحملن ذكرياتهنَّ وخساراتهنَّ في مدينة منهوكة وفي زمن شاق. وقد شاركت الباحثتان كذلك، كل منهما على طريقتها، جزءًا من قصتها من خلال ما كتبتاه.

استطاعت نارود سروجيان وفاطمة فؤاد الجلوس مع الشخص أمامهما، وعلى الرغم من حجم الخسائر المتعددة، استمعتا إلى ألم اللواتي بقين وهنَّ يتذكرن إحدى الشخصيات الرئيسة في هذا الكتاب.

في وقتنا الراهن، أرى كيف نلتفت إلى الإنتاج الثقافـي وإلى فكـرة شبكـات الدعـم المتبادلة والحمـلات والأنشطــة غيـر الممأسســة. تذكـرنا إيتـل ونـادين بـأنَّ هـذه المسـارات والأدوات لطالمـا كانـت موجـودة.

فـي فتـرات معينـة، قـد يكـون الإنتـاج الأدبـي هو ما حـافظ علـى أصـوات نسـوية فـي العقود السابقة، سواء عرّفت الكاتبات بأنفسهنَّ كنسويات أم لا: ليلى بعلبكي، غادة السمان، إميلي نصرالله، إيتل عدنان، حنان الشيخ. عملهنَّ ليس النشاط والخطاب النسوي كما نعرفه، ولا ينبغي أن يكون كذلك. ولكن في هذه الأعمال الأدبية نوع من التفكير في حيوات النساء وقضاياهنّ والتوثيق لتجاربهنّ في سياقين زمني ومناطقي معيّنين من تاريخ لبنان. أنا أعرف هذه الكتابات والروايات أكثر ممّا أعرفه عـن التنظيـم النسـوي فـي الخمسينيـات والستينيـات والسبعينيـات.

لطالما كان الفن والأعمال الثقافية في صدارة المعارضة وفي تصوّر التغيير. يمكننا القول إنَّ عندما يتراجع النشاط السياسي أو حين لا يتخذ شكلًا واضحًا ولا ينخرط في مواجهة مباشرة، تستعمل النساء والنسويات أدوات أخرى مثل التوثيق والفن. تصبح المشاركة الثقافية طريقة للاحتجاج وللتفكير في رؤية بديلة أو ممارستها.

الموت ليس كامل القصة

إنَّ الموت، بالطبع، هو جزء من حلقة مع الحياة، يسبقها ويخلفها. نحزن ونرثي ونمارس طقوس الحداد، لكننا أيضًا نفرح، ونعود إلى الحياة، نجتمع مرّة أخرى في مناسبات عديدة، نتغيّر.

ما الّذي يتغير حين نتذكّر أننا كلنا سنموت، وأنَّ المستقبل غير مؤكد؟ نوثّق. نؤرشف. نؤسّس. نلد أطفالًا ونخلق إنتاجات ومشاريع تحلم بأن تهز شيئًا في هذا العالم. نبني أواصر التضامن حتى لا نُقتل بهذه السهولة. نعيش ونحن نقدّر كل يوم. ندفع إلى التّغيير حيث نستطيع: التغيير مؤكد، الموت حق طبيعي، لكن بعض طرائق الموت ليس طبيعيًّا أو مقبولًا. نعيد بناء ذاكرتنا. نحكي قصصنا.

من نتذكّر ومن ننسى؟ هذه هي أسئلة الأرشيف، وهي أسئلة تطرحها النسويات أيضًا. ما هي الذاكرة النسوية ومن تشمل؟ جزء كبير من عمل ورشة المعارف هو زحزحة المركزية في هذه الذاكرة بينما نقوم ببنائها. ويبرع التاريخ الشفوي والسرد القصصي في هذا المجال، إذ يستطيعان تذكّر الآن والماضي معًا، والنظر إلى الذكريات اليومية الحميميَّة والسياق الأوسع، ثم صياغتها وتحويلها إلى أدوات خلاقة لمجتمعاتنا وحركاتنا.

الإرث والتاريخ الشفوي

تالة حسن

ما يميّز التاريخ الشفوي، من جملة أمور، هو أنه مشروعٌ للحفظ[٥] ولبناء الأرشيفات التي تؤرّخ وتحتفي بذاكرة وإرث نرسّخ أنفسنا فيهما، من أجل البقاء وضمان استمرارنا. هو أيضًا مشروع دائم التكوّن وإعادة التشكيل.

أرشيفات التاريخ الشفوي هي كوكبات واسعة من المعرفة، تُنتج ويُعاد إنتاجها من خلال عملية السرد، وفي كل مرة يستمع إليها شخص ما. في سرد قصة، وفي الاستماع إليها، تقطع القصة شوطًا في ضمان استمراريتها، وتكون -في أحسن الأحوال- محمية من الزوال من خلال توثيقها وعبر الفضول الذي تخلقه لمواصلة الاستماع والمعرفة.

وبالتالي ليس الأرشيف ثابتًا؛ فهو يوثّق قصصًا من مرحلة معيّنة من الزمن، في لحظة محدّدة، لكنّه لا يجمّدها لا هنا ولا هناك. ويهدف إلى التنقّل عبر عدد من علاقات تشكّل جوهره، عبر الأجيال والمجتمعات والحدود.

يحمل هذا الكتاب الفقدان والإرث كموضوعَين أساسيَّين يستكشفهما من خلال التاريخ الشفوي. في خضم الأزمات السياسية والاقتصادية والوجودية التي نواجهها

---

[٥] و"الحفظ" هنا لا يشير إلى الأرشيف كمخزن ثابت، كما تقول دراسات الأرشيف الحديثة (مثل كتابات آن لورا ستولر)، إنما بمعناه المتحرّك، وللتركيز على قابليته للتناقل وللاستمرارية، من خلال الإصرار على الاستماع، والتفاعل مع سياقاته.

يوميًا، نجد أنفسنا ملتزمات أكثر من أي وقت مضى بمشروع ورشة المعارف لسرد القصص والتاريخ الشفوي. نعتمد العمل مع التاريخ الشفوي وتوسيع حدوده كمنهجية وأداة نسويّتَين، بينما نُدفع باستمرار نحو ظروف قاسية جديدة يجب أن نتعامل معها، معًا.

في إعداد هذا المشروع، أجرت الباحثتان نارود سروجيان وفاطمة فؤاد عددًا من مقابلات التاريخ الشفوي حول إيتل عدنان ونادين جوني. أجرت نارود مقابلات مع: نوال، صديقة إيتل؛ تانيا حجّي توما مهنّا، ناشرة إيتل باللغة الفرنسية وصديقتها؛ أليس مغبغب، زميلة ومتعاونة فنية تستضيف أعمال إيتل الفنية في معارضها؛ سارة مراد، كاتبة وأستاذة في الدراسات النسوية والجندرية والكويرية والإعلام، لم تلتقِ بإيتل بشكل شخصي ولكنها متأثرة بها؛ و(ر)، فنانة نسوية التقت إيتل ذات مرة واستلهمت منها. كما تحدثت نارود مع نديم، وهو باحث في منظمة فنيّة نسوية في بيروت، وقد شارك فِكره عن إيتل كفنانة وكشخصية كويرية. أمَّا فصلا الكتاب اللذان يتمحوران حول نادين جوني، الأول بقلم فاطمة والثاني بقلم صفاء من فريق التحرير، فهُما يبنيان على المقابلات التي أجرتها فاطمة مع أقارب الناشطة الراحلة وصديقاتها. قابلت فاطمة: نهاية القواسمي، وهي صديقة مقرّبة لنادين وزميلتها في القضايا النسوية؛ ندى جوني، شقيقة نادين، والتي تخوض معركة حضانة ابن نادين إلى جانب بقية أفراد عائلتها؛ بادية فحص، واحدة من معارف نادين، والتي خاضت معركتها الخاصة لحضانة ابنيها؛ وكذلك صفا أبو دياب وسارة فرحات وهما صديقتان مقربتان لنادين.

اتخذ المشروعان معانيَ متعددة. أُجريا أوّلًا للتعرّف إلى نادين وإيتل من قرب. إحدى أولى المقاربات التي ناقشناها مع الباحثتَين هي ألّا نمجّد هاتين المرأتَين ونجمّدهما في قوالب رومنسية تبسّط إنسانيتهما. أردنا أن نفهم من كثب المكانة التي تحتلّها كلّ منهما في حياة وذكريات من حولهما، خلال حياتهما وبعد مماتهما. كما شكّلت المقابلات وسيلة للتعرف بشكل متعمق إلى الراويات أنفسهنَّ، أي الأشخاص اللواتي أُجريت المقابلات معهنَّ. النساء اللواتي نرغب أيضًا في توثيق حيواتهنّ وأصواتهنّ وخبراتهنّ. وأخيرًا، إنّ مشروع البحث هذا يخرج من الباحثات،

ويعطي مساحة لأصواتهنَّ، والسِّيَر التي حملْنها في أثناء إجرائهنّ هذه المقابلات. وتضع الفصول التي ستقرأونها في هذا الكتاب تجارب نادين وإيتل وإرثهما في السياقات التي نعيشها.

من خلال هذه المنهجية، نصل إلى رؤية توسّع فكرة "السياق". نحن لا نعيش فقط في سياق ما، ولكننا نجسّد أيضًا سياقًا لمن حولنا، خصوصًا إذا كانت الشخصية لها مكانة معينة كسلطة اجتماعية في دائرتها، أو ناشطة في المجال العام، أو تمتلك أيقنتها في نطاق ما.

هذا المشروع غنيّ بالإمكانيات، لكنه لا يخلو من التحديات التقنية والأخلاقية والمفاهيمية. في هذا القسم، سوف نقارب منهجية التاريخ الشفوي: ماذا يعني لنا، وكيف نتعامل معه ونرعاه ونتحداه.

"تاريخ التاريخ الشفوي" باختصار[٦]

أصبح التاريخ الشفوي شكلًا من أشكال البحث والتوثيق في منتصف القرن العشرين، مع تطور أجهزة التسجيل،[٧] في سعي متزايد إلى فهم الأحداث التاريخية من خلال دمج المعرفة الموجودة في الوثائق المكتوبة مع التجربة المكتسبة في الروايات الشفوية. وقد رأى بعض المؤرخين الشفويين أنَّ هذا النوع من البحث الذي يقوم على سرد القصص له أسس في مجتمعات السكان الأصليين المختلفة التي تتناقل التاريخ

[٦] المعلومات الواردة في هذا القسم مستمدة إلى حد كبير من كتاب "تاريخ التاريخ الشفوي":
History of Oral History: Foundations and Methodology" (2007), edited by Thomas L. Charlton, Lois E. Myers and Rebecca Sharpless.

[٧] الشهادات الشفوية هي أدوات تاريخية لنقل المعلومات، ما نشير إليه هنا هو المقاربة الخاصة بالتاريخ الشفوي واستخدام التكنولوجيا، ما دفعها قدمًا كأداة بحث.

والمعارف شفهيًا.[٨] لكن إمكانيات التاريخ الشفوي كأداة اجتماعية وسياسية أخذت في الظهور والتحقّق مع الحركات المدنية الأمريكية منذ منتصف القرن العشرين عندما بدأت المجتمعات المضطهدة المختلفة،[٩] لا سيَّما المجتمعات السوداء والنساء والنسويات والمثليات/يّون[١٠] في التعبئة السياسية بصوت عالٍ. وأصبحت أهمية تجاربهنَّ التي تُوثَّق وتُشارَك، خاصة لمواجهة الإسكات والمحو والتهميش التي واجهتها هذه المجموعات (وما زالت)، واضحة بشكل متزايد. من هنا، اعتمد/ت المؤرخات/ون والباحثات/ون والناشطات/ون على التاريخ الشفوي مع الأشخاص "العاديين" بدلًا من "الرجال العظماء"، فأعطين/وا قيمة "للحياة اليومية" وشدّدن/وا على استثنائية التجارب "العادية" وأهمّيّتها.[١١] وفي ورشة المعارف، نعتمد تقنيات ومنهجيات من إرث الناشطات والباحثات، أيضًا نسأل ونفكّك ونجرّب، وهذه هي المقاربة للإرث التي نريدها.

---

[٨] **Katrina Srigley, Stacey Zembrzycki and Franca Lacovetta, Beyond Women's Words: Feminisms and the Practices of Oral History in the Twenty-First Century (New York, NY: Routledge, 2018).**

[٩] **Women and Memory, Documenting the Stories and Experiences of Women from a Gendered Perspective (2015).**

[١٠] هذه ليست محاولة لجمع هذه المجموعات معًا ولا لإضفاء الطابع الرومانسي على تنظيمات ذلك الزمن. بينما أحدثت الحركات والفعاليات الجماهرية في ذلك الوقت تحوّلًا في المجتمع الغربي، كانت القضايا القائمة على الإقصاء العنصري/الجندري/الجنساني داخل المجموعات المختلفة حاضرة. وما زالت حاضرة في التنظيمات الحالية. في كلّ من العالم الشمالي/الغربي والجنوبي/الشرقي، بما في ذلك المجتمع اللبناني الطبقي بشكل كبير وعنيف.

[١١] توثيق سير وتجارب النساء من منظور النوع: دليل إرشادي. إشراف هدى الصدّة. مؤسسة المرأة والذاكرة (٢٠١٥).

التاريخ الشفوي كمنهجية

إنّ التعمّد في وضع التاريخ الشفوي في السياقات الاجتماعية والسياسية يوسّع من إمكاناته؛ فبالإضافة إلى كونه منهجية بحث تستخدم توثيق تجارب معينة لتحدّي المعرفة والخطاب المهيمنين، فقد تحول التاريخ الشفوي أيضًا إلى منهجية مدركة لذاتها، وأصبح مساحة قيّمة للحفظ، لا تحتاج إلى إثبات نفسها أو إلى تبرير الأصوات التي تحملها؛ فالأرشيفات الشفوية، سواء كانت أرشيفات خاصة أم عامة، يُنظر إليها الآن وتستخدم بشكل متزايد كوثائق تاريخية وكشكل من أشكال الفنون. وفي المنطقة ذات الأغلبية العربية، تستخدم النسويات والناشطات أيضًا التاريخ الشفوي كإحدى أدواتهنّ الأساسية للمقاومة وللتفاعل السياسي والاجتماعي.[12]

فاستخدام منهجية التاريخ الشفوي يمكن أن يؤدّي إلى زعزعة الوضع المعرفي الراهن،[13] وإلى تحدي الأنماط المعيارية لإنتاج المعرفة التي تستمر في إعادة إنتاج هذا الوضع الراهن. عبر نبش القصص التي تخبرنا عن العوالم التي يعيشها الناس ويخلقونها، تعتمد ممارسة التاريخ الشفوي بشكل كبير على الاستماع والسعي إلى فهم واقع معين، بدلًا من السعي إلى تأكيد هذا الواقع كحقيقة.

---

[12] من بين بعض الأمثلة في المنطقة (لا للحصر): أرشيف التاريخ الشفوي لـ"مؤسسة المرأة والذاكرة" (مصر)، وأعمال "الرواة للدراسات والأبحاث" (فلسطين)، وأرشيف التاريخ الشفوي لـ"شرق" و "بدائل" (سوريا)، وأرشيف التاريخ الشفوي الفلسطيني، المكوّن من أرشيف "الجنى" و"النكبة" (فلسطين/لبنان)، وأرشيفنا الخاص في ورشة المعارف (لبنان). يضم أرشيف ورشة المعارف قصصًا عن النساء والعابرات/ين جندريًا من خلفيات وأماكن متعددة، وذلك للحفاظ عليها وعلى وجودها وتقديمها كشكل من أشكال المعرفة للباحثات/ين والمعلمات/ين والفنانات/ين والعاملات/ين في المجال الثقافي.

[13] من الاستطلاعات والمقابلات المنظمة التي تسعى إلى البحث عن معلومات معينة، إلى الأبحاث التي أجراها الأكاديميون والعلماء من منطلق مواقع القوة والامتيازات، يظل البحث عن المعلومات التي تعزز القاعدة سائدًا دائمًا.

باعتبارنا أشخاصًا يحبّون القصص ويؤمنون بأهمية الأصوات الفردية والمجتمعية، أشخاصًا يعرفون قيمة الاستماع إلى الروايات الشخصية ونقلها، من السهل أن تسحرنا الحميميّة والحياة اللّتين نعثر عليهما في التاريخ الشفوي. ومن السهل التعامل معه برومانسية كمساحة لرواية التاريخ بشكل مختلف، وسرده بصدق وبحساسية، لإلقاء الضوء على ما يجب ألّا يظل غير مروي. وبينما نعتقد كمؤرخات شفويات نسويات أنَّ هذا صحيح وضروري، نتذكر أيضًا أنَّ المعلومات الموثقة ليست حقيقة مطلقة، عندما نعتمد هذا التّاريخ كمنهجيّة للبحث؛ فقصة واحدة أو طريقة واحدة لسرد قصة مهمة، لن تكون كافية، فهناك دائمًا قصص ووجهات نظر أخرى، حتى عند الراوية نفسها. ويمكن للقصة أن تكون مزدحمة بالتناقضات، وتتضمّن دائمًا آراء شخصية، فتعكس موقف الشخص الذي يرويها واللحظة التي تروى فيها.

بعبارة أخرى، يتطلب التاريخ الشفوي انفتاحًا على مراجعة الذات والنقد باستمرار. يمكن إساءة استخدام وتفسير أي منهجية والمعلومات التي تجمعُها؛ تمامًا كما علّمنا التفكير النقدي النسوي أن نشكّك في الموضوعية والحيادية المزعومة لأساليب البحث السائدة، ولكن أيضًا استخدام التحليل التقويمي والنقدي والبحث الأدبي، و/أو تكملة القصص الشخصية بالمعرفة التي تنبع من منهجيات أخرى.

النظرة الداخلية

اهتمَّ مشروع ورشة المعارف للتاريخ الشفوي دائمًا بموقف الباحثة التي تجري المقابلات، وبالعلاقة بين الباحثة والراوية في تشكيل الحكايات التي تُروى. في العام ٢٠٢١، شرعت ورشة المعارف في تعميق عملها في التاريخ الشفوي وإمكاناته الحميميّة، من خلال التركيز أكثر على التاريخ الشفوي مع أفراد من العائلات والمجتمعات والمجموعات ذاتها. أطلقنا على هذا المشروع اسم "منّا وفينا".[١٤]

[١٤] في العام ٢٠٢١، عقدت ورشة المعارف أول ورشة عمل "منّا وفينا". تلقت المشاركات مقدمة متعمقة عن التاريخ الشفوي النسوي، وتعمقن في أسئلة وأخلاقيات إعداد مشروع كهذا مع أشخاص مقربين ومجتمعات هنّ جزءٌ منها. في النهاية، طلب من كل مشاركة إعداد مشروع عن التاريخ الشفوي الخاص بأسرتها أو بمجتمعها. إقرأ انطباعاتنا عن ورشة العمل الأولى هنا:
https://www.alwarsha.org/minna-w-fina-ar/

وما يميّزه هو التحدي الذي يحمله الشخص في كشف قصص من يتشارك معهنَّ/م العلاقات والمساحات وتوثيقها.

يمكن أن يؤدي تطوير مسارات وأرشيفات "منّا وفينا" إلى تغيير سبل معرفتنا عن تاريخنا الشخصي والجماعي، فهي قصص قد تُسمع أحيانًا للمرة الأولى، عندما نعبّر لمن حولنا عن رغبة والتزام بسماع أصواتهنّ/م وتجاربهنّ/م. نستكشف في هذا العمل العلاقات والقصص التي ترسخنا في عائلاتنا ومجتمعاتنا، وكيف يشكّل الأفراد بحد ذاتهم أطرًا لحياتنا الخاصة. ضمن مقاربة "منّا وفينا"، رصدنا مجموعة مختلفة من الأسئلة المنهجية والأخلاقية، لا سيما حول حساسية العملية، والأخلاق ومسألة "ملكية" القصة، ومكاننا الخاص في الذكريات الجماعية التي تتمّ مشاركتها، وتحديد سياق حياتنا في حياة المقربات/ين لنا.

ومع تراكم تجاربنا، نجد أنفسنا اليوم نطرح أسئلة مماثلة بينما ننتقل بالمشروع إلى مكان شكّل موضوع تساؤل آخر لنا، ألا وهو إجراء سرد تاريخي شفوي عن حياة أشخاص قد رحلوا/نَ وإرثهم/هنَّ؛ أشخاص كانوا/كُنَّ (وما زالوا/زلنَ) جزءًا من صنع التاريخ النسوي في لبنان، على المستويين الشخصي والعام؛ أشخاص يعلّموننا السياق ويشكّلون جزءًا من سياقاتنا؛ أشخاص هم أيضًا إلى حد ما "منّا وفينا"، في مجال إنتاج المعرفة النسوية وتوثيق التاريخ والإرث النسويَّين. نسعى إلى لمّ الشمل والاعتراف بالتاريخ والإرث المتواصلين للعوالم النسوية التي ننخرط فيها، والتي تتغيّر وتغيرنا ونغيرها. ماتت نادين وماتت إيتل، لكننا كثيرًا ما نسمع: هما لا تزالان معنا. أين ومع من وكيف؟ كما توضح لنا فاطمة ونارود في مقابلتهما، نجدهما في العمل المادي والعوالم التي تركتاها خلفهما، وأيضًا أبعد من ذلك، في الذاكرة والخيال. نجدهما في انطباعاتنا عن الماضي، حيث تشكّل إرثهما النسوي، في الفن والفعاليات، وفي السياسة والكويرية والأمومة، ونجدهما في المستقبل النسوي الذي نسعى جاهدات إلى رؤيته، حيث تشكّل نضالاتهما وأصواتهما صدى وأرضية لنا.

مـرافـقـة الفقدان

بالنسبة إلى فريق التحرير، المتأثر بالعديد من السرديات والإرث النسوي المتباين، يمكن لمقاربة تعتمد على التاريخ الشفوي أن تعلمنا شيئًا عن كيفيّة التذكُّر والاحتفاء والاعتماد على من رحلن. البناء على تاريخ من سبقننا وإرثهنَّ ليس أمرًا سهلًا، خاصة أننا في خضم تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وعلينا أن نجتاز سياقًا اجتماعيًا ثقافيًا يجعل من العمل النسوي البديل والتوثيق وإنتاج المعرفة تحدّيًا مستمرًا ضد التيار.

تقدم لنا الروايات الشفوية التي أجريت مع كلّ من المقربات أو المتأثرات بنادين وإيتل رؤية متعمقة في هذه القضايا، مخزنة في انطباعاتهنّ وذكرياتهنّ وارتباطاتهنّ مع كل منهما. تخبرنا الراويات عن حياة المرأتين الشابة والعائلية، وشخصيّاتهما وتحركاتهما، ومعتقداتهما ومعاركهما السياسية، ووجودهما القوي في المساحات المختلفة، ومدى تأثيرهما والصعوبات التي واجهتهما. كما تُحدّثنا الراويات عن مشاعر الحزن ومعانيه، والفقدان، والتغييرات التي تطرأ بعد وفاة شخص عزيز، وكيف تخدم الذاكرة والإرث مراحل الحداد والشفاء.

ولكن جوهر هذا المشروع يكمن أيضًا في الحفاظ على قصص الراويات أنفسهنَّ. يتفاعل التاريخ الشفوي مع الراوية، ليوثّق انطباعاتها وتجاربها كما اختارت أن تشاركها ويستمد المعرفة منها. عندما اتخذنا قرار المضي في مشروع تاريخ شفوي يتمحور حول شخصية راحلة، كان من الضروري بالنسبة إلينا ألّا تنحصر ساردات القصص في علاقاتهنّ مع هذه الشخصيات أو الخسارة التي عانينها. تحتفظ كل راوية في المقام الأول، وبغض النظر عن موقعها، بتجاربها وذكرياتها في القصص التي ترويها.

وهذه ليست مهمة بسيطة؛ إذ قامت إيتل ونادين، كل منهما على طريقتها الخاصة، بتغيير شيء ما في المجالات الثقافية والسياسية النسوية، وألهمتا الكثيرات ولمستاهنَّ، بمن في ذلك عضوات فريق ورشة المعارف والباحثات اللواتي

أجرين المقابلات. ولذلك من المغري بالنسبة إلينا جميعًا الخوض في حياة إيتل ونادين، واكتشاف الشخصي وراء الشخصية العامة من خلال من عرفنْهما جيّدًا. لكن نارود وفاطمة حرصتا على أن تكون النساء اللواتي تحدثن إليهنَّ محور القصة التي يروينها. سردت الراويات ذكرياتهنّ وتجاربهنّ بينما ربطنها بالأسئلة التي طرحتها الباحثات حول إيتل أو نادين، ليصبح الحزن، بدلًا من أن يكون التعبير عنه مجرد إحساس بالعاطفة، عدسة تُسرد من خلالها التجارب. وأضحت ذكرى إيتل أو نادين نقطة انطلاق لسماع وجهة نظر الراويات وعلاقتهنّ بهما، بدلًا من كونها فقط معلومة توصيفية عن الشخصية الراحلة. شبكة القصص هذه هي التي أغنت المقابلات؛ في حين أنَّ كل قصة في حد ذاتها ليست قصة كاملة أبدًا، لأنه يوجد دائمًا المزيد لنقوله، يكمن جمالها في كيفية إفادة بعضها، والتحرك معًا، والأماكن والسياقات الجديدة التي تأخذ المستمع/ة إليها.

من السهل الكتابة برومانسية عن هاتين المرأتين اللتين عاشتا تحت أعين الناس وتركتا خلفهما العديد من الموروثات المادية والذكريات. لكن على الرّغم من تباين نسوية إيتل ونادين بشكل كبير، إلّا أنَّ ما يجمعهما هو رغبتهما في عدم التمسّك بالأيقنة، وإدراكهما الضمني والصريح أنهما جزء لا يتجزأ من الهياكل والأنظمة والمجتمعات التي لا يمكن أن تمحى، حتى عندما يتعلق الأمر بالحزن عليهما. تكتب إيتل: "في صباح اليوم التالي بعد موتي سنجلس في المقاهي، لكنني لن أكون هناك، لن أكون"،[10] في إشارة إلى الوجود والغياب معًا، حيث كلاهما متموقع في سياقاته، وكلاهما ذات قيمة ومغزى.[11]

---

[10] **Etel Adnan, The Spring Flowers Own in "The Spring Flowers Own & The Manifestation of the Voyage," (Sausality, CA: Post-Apollo Press, 1990), 15.**

[11] انظر كتاب "ما تبقّى: تصورات نسوية-بيئية"، من ورشة المعارف (٢٠٢٢)، الفصل الرابع، "أرشيف من الأشباح"، حيث تتفاعل ريم جودي مع إيتل عدنان وفكرة الأرشيف.

https://www.alwarsha.org/wp-content/uploads/2022/06/Ma-tabaqqa-ما-تبقّى.pdf

ولقراءة الفصل باللغة الإنكليزية:

https://www.alwarsha.org/an-archive-of-ghosts/

أخلاقيات وخواطر

ما هي حدود التاريخ الشفوي؟ وما هي تحديات إجراء التاريخ الشفوي حول شخص بعد موته، والتعامل مع الفقدان من خلال التركيز على حياة من تأثر(ت) بالموت، وحياة من تشبّث(ت) بالموت نفسه وخلق(ت) حقائق ومستقبلًا منه؟ عادة ما يكون التاريخ الشفوي شكلًا من أشكال السيرة الذاتية، حيث يطلب من الناس رواية قصصهنَّ/هم الشخصية، وتوثيق تجارب من الطفولة إلى الحاضر، أو تجارب من حقبة أو حدث أو مكان أو موضوع محدّد. نسأل أنفسنا ما الذي يعنيه إجراء تاريخ شفوي يتمحور حول شخصيات لم تعد معنا، ولكن قصصها ما زالت قائمة وما انفكّت تتكشف في الذاكرة الشخصية والجماعية والمخيلة الجماعية.

كما نطرح على أنفسنا أسئلة حول الأخلاقيات وملكية القصص والموافقة على النشر وحق الرد في مشروع كهذا، كوننا ننشر الكتابات والمقابلات حول شخصية معينة لم تعد معنا. عند قراءة هذا الكتاب، وعبر تحليلاته وملاحظاته والمقاطع من بعض التاريخ الشفوي التي أُجريت لهذه الإصدارة، يأتي عنصران من التاريخ الشفوي النسوي في المقدمة: الاهتمام وعدم الارتياح، وهما ربما موضوعان لا مفر منهما في مشروع عن الموت والحداد. يمكن أن يساعدنا هذان العنصران في التفكير في هذه الأسئلة الأخلاقية؛ قد يريحاننا، أو يتحدياننا أكثر. في كلتا الحالتين، التأمّل في هذين العنصرين مهم وضروري.

التاريخ الشفوي هو مشروع قائم على الاهتمام والعناية: الاهتمام بالقصص وبالشخص، والعناية أيضًا بالعملية وبالحفظ. نهتم بأن نجري كل مقابلة بمراعاة وقصديّة، وبموافقة مستمرة ومشاركة مع الراوية. من ناحية، يدور التاريخ الشفوي حول الحوار: عبر المحادثات التي تنشأ من الأخذ والعطاء بين الباحثة والراوية. من ناحية أخرى، يتعلق الأمر بالاستماع باهتمام: تعطي الباحثة، من خلال أسئلتها ومشاركتها، مساحة للراوية لكي تروي القصص التي تختارها هي نفسها وبوتيرتها الخاصة. في هذه المشاريع، كان على الباحثات أن يتنقلن بين كيفية الاعتناء بالراوية بينما يطلبن منها أيضًا التفكير في شخص آخر، شخص تشعر

بخسارته بعمق. والاهتمام يصب كذلك في أهمية الاعتناء بالأرشيف وببقائه من خلال إتاحته بطرائق مختلفة.

التاريخ الشفوي هو كذلك مشروع مزعزع. ويمكن أن يكون في حد ذاته غير مريح في بعض الأوقات. هناك تفكيك مستمر، بشكل متعمد أم لا، وقد يكون أحيانًا صعب الاجتياز. يتطلب التاريخ الشفوي إلقاء نظرة معمقة على حياة شخص ما، ما قد يجعله تجربة غير مريحة. تشارك تارة الراويات شيئًا ما، لكن يطلبن لاحقًا إزالته من المقابلة، في تارة أخرى يسحبن موافقتهنَّ على نشر المقابلة بالكامل. في كثير من الأحيان، تثير المقابلة ذكريات وعواطف مؤلمة، ويصبح ذلك جزءًا من العملية. وفي أحيان أخرى، تحتك الراوية بموضوع صعب أو موجع، بينما أخريات يشاركن شيئًا يقلن إنهنّ لم يفكّرن فيه أو يتحدّثن عنه منذ زمن طويل. كما يزعزع التاريخ الشفوي ما نعتقد أنه "معرفة"؛ إذ يرى أنَّ التجارب الذاتية والشخصية هي أشكال من المعرفة، وأنَّ التفاصيل الدقيقة واليومية هي ذات قيمة، في حين أنّ غالبًا ما يتم تجاهل مثل هذه الروايات باعتبارها حسابات شخصية عرضية لا تستحق التوثيق أو البحث.

مع اهتمامنا بالإرث النسوي، من المزعزع أيضًا إجراء تاريخ شفوي عن شخص ما بعد وفاته. إذ لا يمكنه الاشتباك أو الرد. في أي تاريخ شفوي نجريه، نسعى إلى أن تكون العلاقة مع الراوية في جوهر المشروع، ونشاركها في اتّخاذ القرارات حول قصتها. وبالطبع هذه ممارسة نتّبعها في هذا الكتاب أيضًا، مع الراويات اللواتي تقابلهنَّ الباحثات. لكن عند التفكير في الواجب الأخلاقي تجاه نادين وإيتل، نجد أنفسنا نلجأ إلى مبدأ الاهتمام مرة أخرى. استفسرت الباحثات عن قصص نادين وإيتل ووثّقنها بعناية، من خلال اللغة التي استخدمْنها في أسئلتهنّ أو قراراتهنّ الخاصة حول ما يجب إدراجه أو عدم إدراجه في النصوص النهائية. في لحظات معينة، سألن أيضًا الراويات عمَّا يعتقدن أنه مناسب للنشر، وأخذن موافقتهنَّ كنساء قريبات من إيتل أو نادين. يمكننا أيضًا التفكير في المعاني المختلفة للقصص بعد الموت، حيث قد تسلم من الأحكام والتداعيات، أو تُحتوى على أنها "شيء من الماضي". نظرًا إلى أنَّ نادين وإيتل كانتا شخصيتين نشطتا في المجال العام، فإننا نفكر أيضًا في مدى اعتيادهما مشاركة قصص شخصية عن حياتهما في عملهما والانطباعات

التي تركتاها وراءهما، خصوصًا أنّ كلتا المرأتين كانت مسموعة وغير مستعدّة لتقديم الاعتذارات عن هويّتها وآرائها. أخيرًا، يشدّد هذا المشروع على الاعتراف بأنَّ حياة الأشخاص متشابكة وبأنَّ الإرث متحرك. من خلال عملية التفكير والتعلّم والاهتمام، وصلنا إلى مكان نشعر فيه بالراحة في جمع هذه الحكايات ونشرها، مع بقائنا منفتحات دائمًا على هذا النقاش.

وقد أطلقنا على هذا الكتاب اسم "في رفقة الفقدان" لأنَّ عند الاستماع إلى الروايات الشفوية، يتولّد لدينا شعور بالمرافقة. قد نشعر كأننا نرافق الراوية على مدى القصة، أو ربما نتعلّق بتجارب معينة تربطنا بالقصص. من خلال إجراء مقابلات التاريخ الشفوي مع عدد قليل من النساء اللواتي أحطن بإيتل ونادين، نحن مدعوات إلى مرافقة العديد من الرحلات: قصص عن حياتهما كما اختارت الراويات مشاركتها، وقصص تشابكهنّ معهما ومع الفقدان. هناك غياب وحداد وصعوبة بمواجهة الواقع. ولكن هناك أيضًا تأمل في الوجود والتغيير وما يتبقى أو بالأحرى ما يستمر في الوجود، وما نستطيع البناء عليه، انطلاقًا من قصة كل شخصية. ومع الاختلاف بين الشخصيتين اللّتين يتناولهما هذا الكتاب، نعود ونتذكّر أنَّ ما من أحد يجمعهما بشكل مؤثّر في هذا الوقت الذي ينهار فيه لبنان تحت وطأة الأزمات. هما في عقول العديدات وعلى ألسنتهنَّ، بينما نحاول أن نجد في عملهما وكلماتهما وعوالمهما تاريخًا يمكن أن يحتوينا ويمكننا البناء عليه. من هنا، تشمل الفصول أيضًا تأملات في الفن والسياسة النّسويَّين في يومنا هذا، يمكن فهمها على أنها طقوس حداد والتكيف مع الفقدان، بقدر ما هي متعلّقة بحياة هذه الشخصيات النسوية البارزة. في القسم التالي، ستكتب صفاء عن كيفيّة تطويرنا هذا المشروع في سياقين سياسي واجتماعي متأزّمين في لبنان والمنطقة، دفعانا نحو أسئلة ونقاشات وخيارات أثّرت على يومياتنا في تطوير هذا الكتاب، وأيضًا على ما احتواه.

صفاء ط.

أحاول كتابة الجزء الأخير من هذه المقدمة بينما ننهي مسار هذا الكتاب. أنظر إلى الوراء؛ إلى المراحل المتلاحقة للتحضير ويبدو لي أنَّ الكثير من الأحداث والأمور حصل خلال أقل من سنة سواء في إنجاز الكتاب، أم في البلاد، أم في العالم، وقد أثَّرت في تحوُّل مسارنا. أحاول التقاطها وتجميعها وربطها، ويتراءى لي كم أنَّ الموضوع معقد. أعود إلى الملاحظات والتأملات التي سجلتها، وأفكر في أهمية الكتابة والتوثيق في استرجاع لحظات من الماضي، وأيضًا في أهمية أن أراها الآن بعين مختلفة، حتى بعد أشهر قليلة ولكن بعيدة من لحظات الانفعال ومن مباشرة الحدث.

إنَّ خيار إنتاج المعرفة، من خلال نبش قصص الماضي والحاضر قرار واعٍ نأخذه عند كل مشروع، لإدراكنا أهمية هذا النتاج لحاضرنا ومستقبلنا النسويين. نعرف أنَّ نسويات عملن وجاهدن وناضلن في لبنان منذ قرن وأكثر، ولكننا نفتقد لمعرفة قصص الكثيرات وحكاياتهنَّ، كما لتوثيق حقيقي لتاريخ هذا النضال وأحداثه. نحتاج إلى هذه الصلة مع الماضي ومع من رحلن لنتمكن من غرس أنفسنا في تاريخ يشبهنا ويتضمن صراعاتنا، ونستطيع أن نبني عليه ونجادله ونوسعه، ونتعلّم كيف نساند بعضنا مع اختلافاتنا من خلاله. نجد أنفسنا في حاجة ملحّة إلى أن يكون هذا النتاج مكتوبًا وموثَّقًا، وكذلك موجودًا في مساحات وأشكال وتعابير مختلفة، فنية وبحثية وغيرها. تذكر سارة مراد في مقابلتها مع الباحثة نارود سروجيان كم كان مهمًا لها أن تجد نص المحاضرة التي ألقتها إيتل عدنان منشورًا في كتاب.[17] هذا التوثيق لتاريخنا النسوي، بجميع أشكاله قد لا نشعر بأهميته في لحظتها ولكنه عمل تراكمي أساسي.

[17] انظر ورقة نارود سروجيان في هذا الكتاب "تجميع قصص إيتل عدنان"، ومقابلة "استجواب الحدود" التي أجرتها مع سارة مراد.

ندرك بالمقابل أنه يمكن لهذا الإرث النسوي، كما كل إرث، أن يصبح عائقًا إن حمّلناه كثيرًا. يمكن للتاريخ أن يصبح عائقًا إذا حاولنا إسقاطه على الحاضر أو المستقبل كما إذا قدسناه، أو إذا هربنا منه أو سجنّا أنفسنا فيه. تحمل قصص الماضي النسوي أيضًا الكثير من الآلام والتحديات والأخطاء، التي قد نتجنبها مخافة رؤية انعكاسنا فيها. فيصبح إيجاد المسار دقيقًا بين معرفة الماضي ومحبته والبناء عليه، من دون أن نغرق فيه أو في خوفنا من مواجهته. وذلك ما سعينا إليه في هذا الكتاب.

أستذكر هنا أيضًا عملية إنتاج هذا الكتاب لأنني أؤمن بأنَّ توثيق هذه المسارات هو جزء من تجربة حفظ المعرفة، وهو أيضًا لنتعلم من التجربة كيف ننتج معرفة نسوية ليس فقط في مضمونها بل في مسار إنتاجها. فنحن في صدد إصدار كتابنا الثالث، وقد أصبحنا نعرف أنَّ المسارات الزمنية التي نرسمها في بداية كل مشروع لن تمشي كما هو مخطط لها وأننا سنواجه دائمًا ظروفًا تغير هذه المسارات وتجبرنا على التأقلم معها. مع كل عقبة نواجهها ونضطر إلى اتخاذ قرار قد يؤثر في الأشخاص المشاركات/ين في هذا المشروع، نحاول أن نفكّر في الآتي: كيف نتخذ القرار بطريقة نسوية؟ وكيف نستطيع استكمال العمل ولكن أيضًا الحفاظ على صحة الجميع الجسدية والذهنية؟ متى نتوقف ونستريح، ومتى تكون المثابرة في ظروف متشنجة هي الخيار الأنسب لنا؟ متى نساند بعضنا وكيف نعرف قدراتنا وحدودها في هذه المساندة؟ هي أسئلة تظهر بشكل ما في كل مسار وعند كل تحدٍّ. كانت هذه هي الأسئلة التي واجهتنا خلال أشهر انغماسنا في هذا المشروع، ونعرف أنها مرتبطة بمواضيع هذا الكتاب، من فقدان وإرث وقصص نتناقلها ونبني عليها.

سياق العمل

في ورشة المعارف مساحة للنقاش والتفكير بصوت عالٍ والنقد ومساءلة الذات لم أجدها في أي مكان آخر. ربما أخرج قليلًا هنا عن موضوع هذا الكتاب ولكنني أشعر بأنني بحاجة إلى كتابة ما سيلي، لأنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بعملنا مع موضوع الفقد والإرث والنسوية:

نمرّ في المنطقة وفي لبنان بسنوات قاسية بدأت منذ عقود طويلة واشتدت بعد الثورات والانتفاضات في عدة بلاد ناطقة باللغة العربية. مرّت أسابيع خلال عملنا على هذا الكتاب، بين شهري أيار وحزيران ٢٠٢٢، كانت ثقيلة ومضنية بشكل استثنائي، لأنَّ وتيرة العنف فيها ضد النساء والأشخاص الكوير ارتفعت بشكل كبير، في لبنان كما في المنطقة. كان لذلك تأثيره في كل واحدة في الفريق، ولا بد من أنَّ إنتاجية كل منا اختلفت حينها. جاءت مشاركة فاطمة فؤاد لتجربتها ولما تعرضت له من عنف جنسي (وهي تكتب عنه في ورقتها في هذا الكتاب)، لتضيف ثقلًا أكبر علينا كوننا نعمل معًا. كان ذلك الوقت الذي قررنا فيه التّوقُّف قليلًا لنلتقط أنفاسنا ونقعد معًا، كفريق ورشة المعارف، لنتشارك مشاعرنا وفِكرنا وانفعالاتنا، كما لنفكر في مسؤولياتنا وبما يمكن أن نفعله لأنفسنا ولغيرنا من الأشخاص الكوير بما لدينا من موارد وإن كانت محدودة.

حملنا معنا الكثير من الأسئلة في تلك الجلسة وبعدها وفكرنا فيها خلال الفترة اللاحقة. كانت تلك مرحلة لإعادة التفكير في أدواتنا وفي تداخل دوائر العنف، كما للتفكير في مشروعية الأسئلة عن أدواتنا في المساءلة ومحاولات إيجاد العدالة. وتبقى هذه النقاشات مفتوحة ودائمة لعلّنا نتمكن من توفير أدوات تسمح لنا بالمحاسبة. نعود ربما إلى ما اكتسبناه من تجارب وأجيال سابقة، نلاحظ الأخطاء التي ارتكبناها كنسويات ونحاول أن نأتي بطرائق تعالجها. نتوارث هذه المسؤولية في إيجاد حلول للعنف الذي نتعرض له طالما هذا النظام الأبوي يحكمنا، كما نتوارث معها خوفنا المتراكم من محاسبته لنا على محاولة اكتشاف أو ممارسة أشكال من العدالة بأنفسنا.

ولأنَّ التغير دائم، في أيلول ٢٠٢٢، ونحن في المراحل الأخيرة من عملنا على هذه الإصدارة، اندلعت ثورة النساء في إيران ضد النظام. ككل مرة كنت أترقب بكثير من الحماسة والخوف معًا، نساء يكملن الطريق وينرنها لنا. أجهل اليوم وأنا أكتب إلى أين ستصل هذه الانتفاضة، ولكنني أعرف أنّ قصص هؤلاء النسوة وصوتهنَّ في الشوارع قد غيّرا السردية عنهنَّ وعن النظام الديني الأبوي. لا أستطيع إلَّا أن أفكر في

أنَّ هذه الثورة انطلقت بسبب قتل فتاة خالفت قواعد النظام الإيراني للحجاب. خسارة أخرى تلاحقت وراءها خسارات لكثيرات من النساء اللواتي قتلن في الشوارع. ومهما يكن المسار الذي ستأخذه هذه الأحداث، فهل سيكون علينا أن نخسر الكثيرات منا، دائمًا، ونحن نقاوم؟ يتراءى لنا الفقدان طريقًا ستسلكه النساء دائمًا في نضالهنَّ، ولذلك علينا أن نتعلم مرافقته.

تضامنت نسويات في لبنان مع نساء إيران، دعون إلى اعتصام في بيروت في ٥ تشرين الأول ٢٠٢٢ للتعبير عن هذا التضامن. حاول شيخ معارض للنظام الإيراني الانضمام وطردته بعض المشاركات رافضات وجوده. وحصل بعدها نقاش عن جدوى هذا الفعل. ونحن نفهم كيف يتسبب حضور رجل دين بمشاعر من الرفض بسبب آلاف السنين من قمع المنظومة الدينية للنساء والأشخاص غير النمطيين/ات، وهذا الرفض مشروع. ولكن أيضًا هل علينا أن نعيد النظر في مقارباتنا وفي أشكال الرفض والمقاومة التي نريدها، لنخلق عالمًا ألطف من الذي نعيشه والذي يعنفنا كل يوم؟ من هنا، نتعايش مع الـ"لا أعرف"، مع أجوبة غير واضحة ومشاعر متناقضة.

أتذكر نادين جوني. ماذا كانت ستقول وتفعل؟

أيقظ مسار هذا الكتاب وما أحاط به الكثير من الأسئلة بالنسبة إليّ. وإن كنت لسنوات طويلة أحاول النظر إلى ما يحصل معي وحولي بعدسة نسوية. تغيرت الأسئلة والإجابات طوال هذه الفترة وأنا أدرك أنَّ ما قد يحصل بعد أن أنهي هذا النص سينتج أسئلة جديدة عن مواضيع لم نطرحها هنا. ولكن ما نريده هو تواصل هذه المسارات كي لا نعيد طرح الأسئلة نفسها من دون أجوبة، ونراكم دائمًا لإيجاد تأملات وتساؤلات مختلفة؛ لأنَّ في داخل كل قصة قصة أخرى، ولأنَّ الحكايات تتفتح وتتداخل ببعضها لتنتج حكايات جديدة، ولأننا في كل لحظة يمكن أن ننتقل بين أن نكون سلبيات في قصة وصاحبات القرار في قصة أخرى، أصبحت حكاية هذا الكتاب قصة أخرى ترويها كل منا كما عاشتها وتأثرت بها.

وبين التساؤلات والتأملات نعود للسؤال:
لمـاذا إيـتـل عـدنان ونـاديـن جـونـي؟

رحلة اختيار الموضوعات والشخصيات كانت مسارًا طويلًا من التفكير الجماعي والنقاشات والاعتراض. كانت وجهتنا رواية جزء من تاريخنا النسوي من خلال قصص التاريخ الشفوي. ولكننا في المرحلة التحضيرية، في بداية العام ٢٠٢٢، لم نكن قد استقررنا بعد: هل نكتب عن شخصية؟ عن مرحلة من مراحل الحراك النسوي؟ عن مدينة في لبنان وتاريخ حراكات نسوية فيها؟ جمعنا الكثير من الاقتراحات وفكرنا في الروابط بينها، ما يصل وما يتقاطع وما يختلف. وفي الكتابة عن شخصيات نسوية راحلة، حضر العديد من الأسئلة والتأملات الأخرى في جلساتنا الجماعية للنقاش والتفكير، كما في وعي كل منا.

فملاحقة قصص الراحلات منا تبدو رحلة مطاردة، تستفزّ شيئًا في دواخلنا وفي تفاعلنا ونريد أن نوثّق ما يعرفه بعضنا عنهنَّ وأن نكمل ما لم نعرفه. كيف نملأ تلك الفراغات في تاريخنا وتاريخهنَّ؟

أردنا أن نبيّن أوّلًا بعيون من "عرفنهنَّ"، كيف تقاطعت حيواتهنَّ، وكيف تفاعلت هؤلاء النسوة بقصصهنَّ المختلفة مع بعضهنَّ.

وأردنا أن نراهن أيضًا في سياق الحركة النسوية بمعناها الواسع وبما تحمله من قصص مخبأة ومخفية. نحاول توثيق جزء من تلك الخريطة من خلال ما قمن به.

أردنا أن نبحث في السياق، في الحركات، في الخيارات -الشخصية والجماعية- وحاولنا أن نرى تأثيراتها على الأفراد كما على مسار الحركة النسوية. نبحث أيضًا في "غياب الخيارات" وفي تشكيل ذلك لمسارات حياة الكثيرات منّا. وماذا يعني أن تكون لبعضنا "امتيازات" أكثر من أخريات؟ كيف يصنع ذلك قصصنا وعلاقاتنا ومسارات

حيواتنا المختلفة؟ ماذا يفعل بعضنا بامتيازاته المتفاوتة، وهل يمكن لها أن تكون أدوات لنساند بعضنا؟ فنحن لا نختار من أين نأتي ونحمل معنا إرثًا ما، فرديًا وجماعيًا. كيف نتفاعل معه لنبني عليه بدلًا من أن ندفن الخسارات المتتالية ونتجاهل تأثيرها في حياتنا؟ لماذا لا نعرف قصص من سبقننا من النساء؟ لماذا لا نعرف ما ناضلن من أجله وما حققنه وما خسرنه قبل أن نفقدهنَّ؟ تلك القصص إرث نفقده كلما بقي في الظلّ محصورًا في دوائر ضيقة تتلاشى هي أيضًا مع مرور الوقت بخسارات أخرى. فلماذا لا نجد سبلنا للبحث عن هذه القصص وحفظها وتناقلها؟ هذا الكتاب هو أحد السبل التي نتبعها لتغيير هذه السردية.

كان الرابط بين قصص هذا الكتاب أوّلًا المنهجية التي أردناها له، والبحث من خلال التاريخ الشفوي، والكتابة من خلال القصص التي ستجمعها الباحثات -وقد استفاضت تالة في الجزء السابق من هذه المقدمة في شرح إمكانيات هذه المنهجية. وفي الفترة الزمنية نفسها كانت أيضًا خسارتنا لهما، ومحاولة استكشاف تأثير ذلك فينا وفي من عرفنهنَّ؛ فلا بد من أنَّ للموت القريب في الزمن تأثيره، إذ حضرتا بهذا الشكل الكثيف لأننا فقدناهما منذ وقت ليس بعيدًا.

في ظل الخسارات وقصص الموت المتلاحقة من حولنا، ما يجمع النصوص في هذا الكتاب هو "الآن"؛ هذا الحاضر المربك المتناثر الذي تعيشه الكثيرات منا، حاملات معهنَّ من فقدنهنَّ/هم في رحلات طويلة ومتشعبة من النضال.

نتذكر اثنتين من النسويات اللواتي رحلن في ماضٍ/ حاضر ممتد ولكنه يبدو بعيدًا لكثرة ما حدث بعده.

ولدت إيتل عدنان في عشرينيات القرن الماضي وماتت في عشرينيات هذا القرن. عاشت ما يقارب عشرة عقود من التجارب والقصص والحياة السياسية والفنية والثقافية، في لبنان وفرنسا والولايات المتحدة. ورست بعد ترحال وتنقّل في باريس، كما اعتمدت الرسم والشعـر أداتَيـن لـها، أمَّا فكرها وخيالهـا، فلـم يسـتقرّا.

نادين قصة أخرى، تبدو من عالم وزمن آخر مختلف عن ذلك الذي جاءت منه إيتل. ولدت في التسعينيات وعاشت وماتت في لبنان، لم تغادره لأنَّ الفرصة لم تحن، ولأنَّ ابنها الذي فقدت حضانته، هنا.

تعلمت نادين في مسيرتها أدوات نضال مختلفة، أنتجتها تجربتها. تعيدنا قصص هذا الكتاب إلى التفكير في استراتيجياتنـا، إن وجـدت، وطرائـق سعينـا إلى التّغييـر.

تلتقي إيتل ونادين، بالنسبة إلينا، هنا في حاضرنا اليوم وحاضر من عرفنهما.

نسترجع قصصهما في خضم انهيار تعيشه البلاد منذ ٢٠١٩ حين رحلت نادين وحصلت بعدها الانتفاضة، وخلال ٢٠٢٠ السنة التي انتشر فيها وبأ كورونا وفجّر مرفأ بيروت، وثم ٢٠٢١ رحيل إيتل واستمرار الانهيار حتى اليوم والذي نعرف أنه ما زال ممتدًا. ونعرف أننا نراهن بعيون مختلفة ومن "مدينة منهارة" كما تكتب نارود، فهل هي نفسها بيروت التي كتبت عنها إيتل وقالت في العام ١٩٩٣: "العيش [في بيروت] هو فعل خضوع للأسوأ" أما زال هو الخضوع نفسه؟ أم أنه تغير مع كل ما مررنا به من انهيارات وأصبح "الأسوأ" أسوأ؟

لماذا أيضًا؟ لأنَّ قضايانا غير منفصلة وإن بدت كذلك. لأنَّ إحدانا لا يمكن لها أن تصل إلى حقوقها من دون الأخرى. ولأنَّ كل محاولة أو كل نضال لحقوق النساء، مهما بدا متباعدًا في الزمان أو المكان أو القضية أو المقاربة، متصل بالآخر في هذا المسار الممتد للوصول إلى تحقيق العدالة للنساء. وصوت نادين الذي لا يزال يعلو في الساحات هو امتداد لصوت إيتل في الشعر والكتابة والرسم، ولكل امرأة حاولت وتحاول وتخطئ وتجرب من جديد. هذا الامتداد يجعل إرثنا غنيًا وثقيلًا في الوقت عينه. لذلك، علينا أن نتعلم كيف نحمله ونتخفف منه في الوقت عينـه.

أتذكر كلمات ديمة في مقدمة كتاب "تسعينيات نسوية": "أنّ أيّ لحظة من النشاط النسوي تحمل ماضيًا مُتعدِّدًا، وترتبط بالعديد من القضايا والأحداث المعاصرة الأخرى، وتنطوي على العديد من الاحتمـالات التي تتجه نحـونا ونتجـه نحوها"، وأجدها ذات صـلة وثيقـة جـدًا هنـا.

عمل نادين وإيتل النسوي وإن بدا متباعدًا جدًّا ومن أزمنة مختلفة إلّا أنه يقودنا، ليس فقط في الزمان ولكن أيضًا في المكان والجغرافيا، بين اختيار إيتل للتنقل من مكان إلى آخر وثبات نادين في بيروت لتبقى قرب ابنها؛ يبدو أنَّ ظروف المكان تحدد أيضًا مدى النضال وشكله من دون أن تحدّنا بالضرورة.

في حالة نادين، ربما، نحزن على ما كان يمكن أن يكون. نحزن على فقدانها من الساحات والحيوات ولا نعرف كيف كانت لتكمل. في حالة إيتل، نقدّر أنها عاشت سنوات طويلة أعطت فيها الكثير ولكن ذلك لا يلغي حزن الفقدان. كما يعيدنا إلى تساؤلات عن تقديرنا لها بشكل كافٍ خلال حياتها، وكيف لا تطفو أهمية الأشخاص في الذاكرة إلَّا بالموت.

فراغات التاريخ غير المكتوب لنساء في الماضي مخيفة، نحاول إعادة خلقها. نحاول أيضًا أن نكتب اليوم عن نساء عاصرناهنَّ، عشنا معهنَّ مراحل، وسياقات، وتغيرات متشابهة. نكتبها "من قرب". نوثقها مع نساء عرفنهنَّ "كل بطريقتها" كي لا يبقى الكثير من الفراغ في ذاكراتنا الجماعية كما الفردية. هذا الفراغ الذي نرهبه وتشعر به كل منا في قصتها الشخصية وإن بشكل غير واعٍ، هو أيضًا الفراغ الذي نخاف، إن ملأناه، من أن يكون مرآة لقصصنا نفسها تتكرر بتفاصيل مختلفة ولكن بالحمل الثقيل نفسه لهذا النظام الأبوي القامع الذي يبدو كأنه لا ينتهي.

استحضار للعمل الجماعي

ولأنني لا أملك إجابات ولأنَّ كل هذه التأملات التي أطرحها هي للتفكير والتساؤل، أتركها هنا وأعود إلى مسار هذا الكتاب، وإلى من رافقنا في هذه الرحلة التي بدأت مع الباحثتين، فاطمة ونارود، في أوائل نيسان ٢٠٢٢. استكملنا نقاشاتنا معهما في اختيار الموضوعات والاتجاهات التي سنأخذها مع الأشخاص اللواتي سنجري معهنَّ مقابلات التاريخ النسوي. ندرك أنَّ الأشخاص اللواتي قابلتهنَّ الباحثتان كما خلفية الباحثتين نفسها، عاملان ساهما في تحديد اتجاهات الأوراق التي أُنتِجَت. وبينما

نعرف أنَّ أشخاصًا أخريات من محيط نادين أو إيتل أو باحثات مختلفات كنَّ ليضفن وجهات نظر مختلفة، ندرك أنَّ هذه من جماليات التاريخ الشفوي النسوي في إفساح المجال لرؤية متعددة الأبعاد والاتجاهات؛ فلكل واحدة قصتها المختلفة مع نادين أو إيتل، وقد تتلاقى هذه القصص في أمكنة وأزمنة ما فتدهشنا تقاطعاتها، أو تختلف أو تتعارض فتوقظ فينا أسئلة واحتمالات. كما أنَّ كل باحثة تأتي محملة بتاريخها الشخصي والنسوي الذي مهما حاولت أن تحيده عن كتابتها فسيبقى حاضرًا في أسئلة مقابلات التاريخ الشفوي وتفاعلها مع الرواية. يحضر ذلك بشكل واضح في النصوص التي ستقرأونها/أنها، إذ تتفاعل كل كاتبة مع الموضوعات بشكل شخصي ومتفرد.

عملنا هذه السنة أيضًا مع مترجمات لامعات، أضفت كل منهنَّ على النّصوص روحية مختلفة: ذكّرنا العمل مع ديانا عباي وغدير سويدان ويمنى مروة بأنَّ الترجمة هي شكل من أشكال إنتاج المعرفة، من خلال تفاعل المفاهيم والقصص عبر اللغات ومستخدميها. بالتوازي كانت الدعوة للمصممين/ات إلى التقدُّم، وأجرينا المقابلات خلال شهر حزيران ٢٠٢٢، واخترنا يمان طعمة للعمل على الغلاف والتصميم الداخلي، كما عملت ريم حمّود على القسم التقني من التصميم. وفي كل مرة تكون ترجمة فِكرنا إلى عمل فني وبصري تجربة خلاقة ومرحة لنا.

مع المقابلات التي صارت جزءًا من أرشيف ورشة المعارف، أردنا أن نشارك مقاطع منها، لذلك باشرنا العمل على تفريغ المقابلات وترجمة ما كان منها بالفرنسية والإنكليزية لننشرها في الفصل الثالث من هذا الكتاب، فكان تعاوننا مع باسكال غزالي ويمنى مروة وأريج شريم.

نشكر أيضًا رنا عيسى وريما رنتيسي على مراجعة نصوص الباحثتين، لأننا نريد دائمًا عينًا نقدية تدفع النصوص نحو إمكانيات أفضل. ونعود إلى رامي قطار في هذا الكتاب، كما في كتب ورشة المعارف السابقة، للتدقيق اللغوي، ونجده دائمًا حاضرًا لأسئلتنا اللغوية.

إنَّ الخسارة والموت، كما أوضحت ديمة في بداية هذه المقدمة، لا مهرب منهما، هما في حياة الكل، ونحن نعايشهما ونهرب ونتأقلم معهما بطرائق متعددة. لكن أيضًا البناء هو جزء من عملنا. ربما لا مهرب أيضًا من التطرُّق إلى موضوع الإرث: ماذا نترك، نحن الفاعلات بطريقة ما في المجال العام، في إنتاج المعرفة من خلال البحث في التاريخ وفي القصص المسموعة والمخفوتة. نستعمل الكتابة والتاريخ الشفوي لنسأل ونسمع ونوثّق.

عن المقابلات: ملحوظات حول اللغة والأدوات

ننشر في هذا الكتاب مقتطفات من المقابلات التي أجرتها فاطمة فؤاد ونارود سروجيان، ومعظمها مقابلات التاريخ الشفوي الَّتي تناولت طفولة الراوية وأجزاء مختلفة من حياتها، وعلاقتها بإحدى الشخصيات الرئيسة. أمَّا بعض المقابلات، فقد ركّز على الجانب المهني من علاقة الراوية بالشخصية الرئيسة.

حرّرنا المقابلات، من خلال مزج بعض المقاطع ببعضها الآخر، وحذف غيرها، لتكون أقصر وأسهل للقراءة.

حين كانت المقابلات بالإنكليزية، مثل المقابلة مع سارة مراد، ترجمناها إلى العربية (الفصحى)، مع ترك بعض الكلمات باللغة المحكية اللبنانية، كما استعملتها سارة ونارود. لكن في معظم النصوص، تركنا اللغة العامية مع تعديلات بسيطة.
كان هذا القرار التحريري ناجمًا عن حبنا للغة كما نتكلّم بها، والحفاظ على خصوصية المقابلات وأصالتها قدر الإمكان، فنسمع إحدى اللهجات الفلسطينية عند قراءة التاريخ الشفوي مع نهاية القواسمي.

إنَّ محتوى المقابلات الواردة في هذا الكتاب لا يعبّر بالضرورة عن رأي ورشة المعارف. في مجمل مشروع التاريخ الشفوي في ورشة المعارف، نهتمّ بتوثيق قصص النساء من دون رقابة، لتكون انعكاسًا لآراء وتجارب شخصية وطرائق مختلفة في التعبير والسرد، حسب كل راوية نقابلها ونسجّل قصّتها.

في الكلمات غير المألوفة

- نستعمل في اللغة المحكية والفصحى كلمة "الأفكار" كجمع لـ"الفكرة". ولكن "الأفكار" جمع "الفِكْر"، أمّا جمعُ "الفكرة" فهو "الفِكَر" بفتح الكاف. لذلك، ارتأينا استعمال الكلمة الفصحى في جميع النصوص إلّا في نص المقابلة مع سارة مراد، كونه مقابلة مباشرة استعملت فيها اللغة المحكية.

- نستعمل في اللغة العامية والفصحى أيضًا "الطُّرُق" كجمع لـ"الطّريقة"، ولكن "الطُّرُق" جمع "الطريق"، أمّا جمع "الطريقة" فهو "الطّرائق". وقد حافظنا في بعض الجُمَل والسّياقات على كلمة "الطُّرُق"، كونها واردة بمعنى "الطّريق" لا "الطّريقة".

- رغم أنَّ الجمع المُستخدَم والمألوف لكلمة "الصَّباح" في اللغة الفصحى "الصّباحات"، إلّا أننا ارتأينا استعمال الجمع الفصيح وهو "الأصباح".

تجميع قصّة إيتل عدنان

محادثات وقراءات في بيروت

نارود سروجيان

نـــارود سروجيـــان

نـارود كاتبــة وبـاحثـة تعيــش فـي بيروت، حـائزة درجـة المـاجستير فـي مجالَي الأنثروبولوجيا الطبية والعلوم الاجتماعية مـن جامعـة أمستـردام، والبكـالوريـوس فـي الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من الجامعـة الأمـريكيـة فـي بيروت. تـدرّس حاليًـا فـي مجـال الأنثـروبـولوجيا فـي الجامعـة الأمريكية في بيـروت. تـدور اهتمامـاتهـا البحثيــة حــول مــادية الأجســام وسياسات الرعـاية والعاطفـة في بيـروت، والمـواد السينمـائيـة ودراسـات العلــوم التكنـولوجية النسـوية (feminist technoscience) وروايـة القـصـص الإثنـوجـرافيـة.

ونارود هـي أيضًـا عـازفـة كمـان كـلاسيـكية، وتحمــل شهــادة البكالـوريـوس فـي عـزف الكمـان. بـدأت رحلتهـا فـي معهـد يريفـان كوميتـاس المـوسيقـي الحكـومي فـي أرمينيـا، وصـولًا إلى العـزف فـي الأوركـسترا فـي أمـاكـن بـارزة فـي جميـع أنحـاء العالـم.

مقدمات

قبل أسابيع وجيزة من إعلان الإصابة الأولى بفيروس كورونا في لبنان، وبعد أشهر معدودة من بداية انتفاضة ١٧ تشرين الأوّل التي تبعتها أزمات اقتصادية وسياسية، افتتح غاليري صفير- زملر، وهو اسم مؤثّر في المشهد الفني المعاصر عالميًا، معرضًا لإيتل عدنان في بيروت بعنوان "انتفاضة الألوان". تضمّن المعرض مجموعة واسعة من الأعمال الفنية متعددة الأبعاد لإيتل، من لوحات وسلاسل من الـ"ليبوريلو"[1] وورق الجدران وأنسجة مزدانة بالرسم والصور وكلها تنضح بسخائها في استخدام الألوان. كانت إيتل تأمل أن يكون "هذا المعرض بمنزلة بصيص أمل وسط الأزمات السياسية والاقتصادية الحادة التي يشهدها لبنان".[2] أرادته لوحةً مزهوّةً تعيد الحياة لبلدٍ شحُب وجهه وذهب ألقه. لكن على الرغم من تفاؤلها بتحقيق الأهداف، اضطر المعرض إلى الإغلاق في آذار من العام ٢٠٢٠ بمجرد إعلان الحجر الصحي العام الأوّل حينها.

في تلك الأثناء، كنت أحضر صفًا عنوانه "المدينة في الأدب العربي" اختتمت به آخر فصلٍ لي في الجامعة الأمريكية في بيروت. كُلّفنا بقراءة نصوص تشرح كيف كان الكتّاب والكاتبات العرب الكلاسيكيون/ات والحداثيون/ات يتخيلون/ن المدن ويصورونها/نها. ومن قبيل الصدفة، كان علينا أيضًا قراءة مقتطفات من كتاب إيتل عدنان "عن مدن ونساء (رسائل إلى فواز)". في الوقت الذي كان الكثيرون/ات منّا يشكّكون/نَ في ارتباطاتهم/هنَّ ببيروت، وهي تمر بتحولات سياسية ومادية جذرية، أمدّتنا هذه النصوص بلذّة شعرية وإدراك لأهميتها. كانت شوارع بيروت تعج بالمحتجات والمحتجين، وكانت جدرانها تظهر رسومًا مختلفة وتبرز علامات التمرّد والغضب. فتحت قراءة إيتل لمفاهيم المدينة (أو المدن) أفقًا جديدًا للمناقشة داخل الفصل الدراسي وخارجه. كان كتابها رحلة تأمليّة اصطحبتنا فيها إيتل من وجهتها لنتأمّل من خلال فِكَرها وعواطفها ولقاءاتها حيوات النساء في مدن مختلفة، وعلاقتهنّ بالمساحات الإقصائية، وسبل تعاملهنّ مع الحرب، وكيفية

---

[1] نوع من المطوية؛ نمط فنّي من المنشورات/الكتب المطوية.

[2] غاليري صفير-زملر، "ثورة الألوان" (٢٠٢٠).
https://www.sfeir-semler.com/beirut/exhibition/etel-adnan-1

ارتباطهنَّ بفكرة التعبير عن كونهنَّ نساء في سياقاتهنَّ الاجتماعية؛ كيف يتصرَّفن، ويشعرن، ويحزنَّ، ويبتهجن، ويعشن حياتهنَّ اليومية في المدن وفي المنازل، وفي المنفى وفي أماكن أخرى.

هكذا "التقيت" بإيتل للمرّة الأولى وجُلت في عالمها الواسع من العواطف والفِكَر والسياسة. في ذلك الوقت، كنت شغوفة بالتحديق بفنها عبر الشاشة، والتمعّن في ابتكاراتها للخطوط والأشكال والألوان والأضواء، والانغماس في شِعرها ومقالاتها ورواياتها.

بعد مرور عامين على هذا اللقاء، أجد نفسي باحثة ضمن مشروع تاريخ شفوي في ورشة المعارف عن قصص النساء اللواتي قابلن إيتل عدنان وعملن معها وصادقنها، أو استلهمن من حياتها وعملها ومواقفها السياسية. أسعى من خلال هذا البحث إلى فهم إرث إيتل السياسي والثقافي من خلال وجهات نظر مختلفة، وإلى تقدير إنتاجاتها الأدبية والفنية على مدى حياتها، نظرًا إلى هوياتها، و"منازلها" المتعدّدة، وتنقّلاتها الدائمة، وشبكة علاقاتها الواسعة.

في هذا النص، إذًا، أقوم برحلتي الخاصة في بيروت، وهي مسيرة بحثية كما أخذتها الشاعرة والرسامة بنفسها مرات عديدة. أتبع الدروب الفنية والشخصية التي سلكتها إيتل، فأتواصل مع بعض صديقاتها، وأزور المساحات التي يتردد فيها صدى فِكَرها وسياستها وأسلوب حياتها، وأستغرق في تأمّل عملها بوسائط فنية وإبداعية مختلفة. من خلال هذا النص، أعيد اكتشاف ما تركته لنا إيتل عدنان من إرث مثمر، فأعود لأقرأ بعض أعمالها بينما أستجمع القصص الشخصية والأخرى التاريخية، وبعض المحادثات، وسجلات التاريخ الشفوي النسوي. أشرع في هذا البحث في وسط انهيار وأزمات متعاقبة، وهجرات غامرة إلى خارج لبنان، ولهذا كانت بعض لقاءاتي خلال رحلتي البحثية مع أفراد هاجروا من لبنان، إلى بعض المدن التي عرفتها إيتل وإلى فترات زمنية مختلفة عاشتها وعاشها معارفها. لكنني دائمًا أعود إلى الحاضر، وإلى بيروت، فأنهي هذا النص من خلال التمعّن في أمثلة حية عن تأثير إيتل على مساحات فنية شابّة في بيروت، وأيضًا على أشخاصٍ من خلفيات ومهن وأجيال مختلفة.

"إزميرنا" (٢٠١٦) هو فيلم وثائقي من إنتاج جوانا حاجي توما وخليل جريج. يبدأ بمشاهد النار والقوارب والبحر، بينما تروي جوانا من وجهة نظر مراهقة باستخدام ضمير المتكلم، واصفةً الفرار ودمار المنازل. ثم نراها، في الزمن الحاضر، جالسة مع إيتل تناقش تاريخ العائلة ونيران سميرنا (إزمير في تركيا الحديثة)، التي دفعت أجداد جوانا ووالدَي إيتل إلى المنفى. و إيتل ابنة امرأة يونانية ورجل سوري كان ضابطًا رفيع المستوى في الجيش العثماني.[٣] أُجبر والداها على مغادرة سميرنا إلى بيروت بعدما دمّر الحريق الهائل المدينة. ولدت إيتل في بيروت، وترعرعت وحيدة لوالديها حيث عاشوا الهويات الثقافية المختلفة التي تميزهم. نشأت وهي تسمع قصصًا عن المنفى، والهزيمة، وخسارة المنازل، وهدم الأوطان. وكانت محاطة بمزيج من اللغات في المنزل وفي المدرسة. هكذا صارت إيتل تجسّد الهويات الثقافية المتنوعة، وأنماط التفكير وأساليب الوجود المختلفة.

ترعرعت إيتل في لبنان قبل الاستقلال، وتلقت تعليمها الابتدائي باللغة الفرنسية في مدرسة كاثوليكية، والتحقت بعدها بالكلية العليا للآداب في بيروت. كتبت أعمالها الأولى بالفرنسية، ما جعلها كاتبة فرنكوفونية. من خلال إنجاز مساعيها الفنية والفكرية الأولى بالفرنسية وطلاقتها في هذه اللغة، سرعان ما تمكنت من الوصول إلى فرنسا، وإلى العالم الأدبي الفرانكوفوني العالمي، وكذلك إلى المجتمعات الناطقة بالفرنسية في لبنان عندما عادت إلى البلاد في أوائل السبعينيات. وانتمى العديد من أصدقائها ومعارفها وزملائها البيروتيين إلى الدوائر الفرنكوفونية. بعد نصف قرن، في ربيع العام ٢٠٢٢، التقيت بعضهم/هنَّ في أجزاء مختلفة من المدينة لاستجماع الذكريات والتاريخ الشفهي والقصص للفنانة الراحلة.

بعد ظهر أحد أيام شهر أيار من العام ٢٠٢٢، في بيروت، استقللتُ سيارة أجرة متّجهةً إلى منطقة الأشرفية—ساسين. توقّف بي السائق أمام المبنى حيث رأيت لافتةً كُتب عليها: "معرض أليس مغبغب، اقرع الجرس، ثم اصعد إلى الطابق الثّاني". انتظرت وصول صديقتي لتنضمّ إليّ ثمّ صعدنا، كما أشارت اللافتة. رحّبت بنا أليس، مؤسِّسة

[٣] إيتل عدنان. "عن نهاية السلطنة العثمانية: فصل من سيرة". مجلة بدايات، ٢٠١٦.

المعرض ومالكته، ثمّ أخذتنا في جولة في المكان لتعرض الأعمال الفنيّة المختلفة للمعرض الجديد بعنوان "Lumières" (الضّوء والاستضاءة). هذه الأعمال صنعتها أيدي فنّاناتٍ يبدعن في ميادين مختلفة، من بينهنّ إيتل عدنان الّتي تجسّد عملها في لوحةٍ صغيرة.[٤] هأنذا أقف أمامها، مفتونة بهذه البقعة من الطّبيعة. هي لوحةٌ بسيطة أُنجزت بضربةٍ واحدة من اللّون الأسود، كما جاء في الدّليل الخاص بالصورة. لقد أنجزتها في خريف العام ٢٠٢١، قبل أسابيع قليلة من وفاتها.

هذا المعرض هو أشبه بقصيدةٍ عن أهمية الضّوء وعن أهمية وجوده في صالة العرض، وهو انعكاس لما يحصل في لبنان. بعد الانقطاع المستمر للتيار الكهربائي، قرّرت أليس مؤخَّرًا الحصول على ألواح الطّاقة الشمسية، وتوقفت عن التزوّد بالطاقة الكهربائية عبر أصحاب المولدات الخاصة. كانت سعيدة بتولّي هذا الأمر بنفسها، مع اعترافها بالكلفة المرتفعة للمشروع؛ فمعرضٌ فنّيٌّ بلا ضوء هو أشبه بمكتبةٍ بلا رفوف. لذلك، فإنّ إعادة الافتتاح هذه تجمع كلّ هؤلاء الفنّانات اللّواتي بنين أعمالهنّ على تفاعلٍ بين الشكل واللون والظلام والهيئة والضوء، وقد نعدّه شكلًا من أشكال المقاومة لإخفاقات الدولة، وإن بقي على مستوى الحلول الفردية.

انطلاقًا من صداقتهما، تعاونت أليس مغبغب مع إيتل، الرسّامة، في آخر أيّام حياتها. بعد عدّة أسابيع، عدتُ إلى المكان ذاته في يومٍ آخر من شهر أيّار، وفي فترة ما بعد الظّهر، لأسأل المزيد حول الصّداقة الّتي جمعتهما. أخبرتني أليس عن افتتان إيتل بالأشجار وعن وجودها في فنها وشعرها. وحين سألتها عن هذا التعلّق بالأشجار، أجابت مالكة المعرض: "حلمها كان يكون عندها بيت ببستان زيتون حدّ البحر". وتعتقد أليس أنّ هذا قد يكون بسبب جذورها اليونانية والسورية. لطالما كان البحر عنصرًا آسرًا لإيتل. وفي كتابها "عن مدن ونساء (رسائل إلى فواز)"، تُشيد بالبحر وبوجوده الأساسي في هوية بيروت: **أن تتأمل البحر يعني أن تصبح ما أنت.**

البحر يغدو هويّة ومساحة للتّأمّل، حيث توجد الحلول لمشاكل المدينة. والطّبيعة بحدّ ذاتها هي مقعدٌ يُتّكأ عليه، وعنصر حياتيّ ثابت في عالم إيتل.

---

[٤] **تضمّن المعرض، إلى جانب إبداعات إيتل عدنان، أعمال جانين كوهين، وهدى قساطلي، ومالغورزاتا باشكو، وكليمنس فان لونن، ووي وين.**

لكن ماذا تصنع كل هذه الفِكر والتأملات من إيتل؟ إنّها بلا شكّ على ارتباطٍ بمدينة بيروت، مكان ولادتها، رغم أنّ بطاقة هويتها تشير إلى أنّها ولدت في مدينة سميرنا، كما أراد والداها. علاوةً على ذلك، تشعر إيتل بأنَّ ثمّة رابطًا بينها وبين البحر المتوسّط، هذا الجسم المائي الّذي يحدّ المدينة، والّذي كان مكانًا للّجوء والنفي بالنّسبة إلى والديها، وإلى كثيرين/ات غيرهما. هذه الحدود الثّقافية والرّوابط الذّاتيّة استطاعت أن تجعل من إيتل كاتبة بنكهةٍ متوسّطيّة وشرقيّة.

في منتصف محادثتنا، تطرّقت أليس إلى عنصر التّضحية في حياة إيتل. تردّدت في إعطاء رأيها حول ما إذا كانت إيتل قد قدّمت تضحيات من أجل الوقوف في وجه المظالم العالمية. قالت لي: "إيتل ضحّت"، لكن ما لبثت أن تريّثت وبدّلت رأيها، الأمر الّذي أدهشني: "كلّا، ربّما لم تفعل". لم أكن واثقة تمامًا من سبب تراجعها عن هذا التصريح، على الرغم من أنها أوضحت أيضًا أنَّ إيتل كانت ذات صوت سياسي، وتحمّلت عواقب ذلك. وكمثال حيّ عن ذلك، عشية حرب الاستقلال الجزائرية، قرّرت إيتل التوقّف عن الكتابة بالفرنسية، احتجاجًا على الدولة التي تمثّلها هذه اللغة، بعدما كانت معروفة ككاتبة فرنكوفونية. كما أخبرتني أليس عن تصريحات إيتل ضدّ حرب فيتنام ودعمها للقضية الفلسطينية، الأمر الذي ربما تسبّب في فقدانها منصبًا تدريسيًا في الجامعة الأمريكية في بيروت، كما تلاحظ أليس وصديقات أخريات لإيتل. فتح هذا الحديث مع أليس مجالًا لأسئلة أخرى: ما زال هناك الكثير لنعرفه عن إيتل والقرارات السياسية والشخصية التي اتخذتها، وربما لن أصل إلى أجوبة لها، لأنَّ إيتل لم تعد معنا. ما تيقنته هو أنها كانت تترجم قراراتها السياسية من خلال تنقلاتها، وبالأخص من خلال رسومها وكتاباتها.

في العام ١٩٥٥، انتقلت إيتل إلى بيركلي بعدما عاشت ودرست في باريس لمدة ست سنوات.[٥] وقد عاشت في الولايات المتحدة حتى العام ١٩٧٢.[٦] وبعد وجود خلافات

---

[٥] **Kathleen Weaver. "The Non-Worldly World: A Conversation with Etel Adnan." Poetry Flash, May 1986 (no.158).**

[٦] **Etel Adnan. "Voyage, War and Exile." Al-'Arabiyya Vol. 28, 6-7, 1995.**

جوهرية مع ما تمثله اللغة الفرنسية، بدأت الكتابة باللغة الإنجليزية، وهي أيضًا لغة إشكالية. ومع ذلك، أصبحت تجسّد هوية أميركيّة جديدة،[٧] وهي هوية مرنة احتضنتها لعقود، بعدما أقامت في مدينة سوساليتو، في كاليفورنيا. وقد كتبت في مقال عن أسفارها وتحركاتها بين أماكن مختلفة:

بعد بضع سنوات من الدراسة في جامعة كاليفورنيا، وبيركلي، وجامعة هارفارد، وجدتُ وظيفة تدريس في كلية صغيرة بالقرب من سان فرانسيسكو، وتخليتُ عن تحضيراتي للدكتوراه. (يجب أن أقول، لحسن الحظ)! كان ذلك في العام 1958 واعتبرت أنني وجدت سقفًا يأويني وراتبًا وسببًا للعيش، ونوعًا من هوية جديدة. ثمّ تبعت ذلك حقبة الستينيات والثورة الثقافية العالمية التي حدثت. أتذكر حينها في فترة من الفترات، أصبحت أميركيةً بعمق، وعربيةً بعمق، نظرًا إلى المنظور الجديد الذي اكتسبته، من الـ Bay Area [منطقة الخليج في كاليفورنيا]، بشأن العالم العربي. الأهم من ذلك كله أنني شعرت بانتماء مبهج إلى العالم في حد ذاته.[٨]

عندما اندلعت حرب فيتنام، لجأت إيتل إلى الشعر منتقدةً شرور العالم والقوى الإمبريالية. كان الشعر مرّة أخرى فسحةً للّجوء خلال الحرب في العراق عندما كتبت إيتل "أن تكون في زمن الحرب".[٩] ومن هنا أصبحت شاعرة عربية أو شاعرة "العالم العربي". ولكن ما هو تعريف الشاعر العربي؟ فهي لم تكتب باللغة العربية، رغم أنها أثارت في كتاباتها الاضطرابات الموجودة في العالم الناطق بالعربية:

أن تسمع بحربٍ من مكانٍ بعيد. بالنّسبة إلى آخرين؛ أن تفجّر، وأن تقضي على بلدٍ، وأن تنسفَ حضارةً، وأن تدمّر أحياءً. [.] وأن تقاوم يعني أن تنهض وأن ترفع الصّوت وأن تعلم أنّ المسيرات ضدّ الحرب تزداد عددًا وأن تعلم أيضًا أنّ الطّبيعة البشريّة متعدّدة الأوجه وأن تعلم أنّ الحرب في كلّ مكان .[١٠]

---

[٧] المصدر السابق، 6.

[٨] المصدر السابق، 7.

[٩] Etel Adnan. "To Be In A Time Of War." In In the Heart of the Heart of Another Country. (San Francisco: City Lights Books, 2005), 102-103.

[١٠] Ibid.

في مقال بعنوان: "في التّصوّر: الفنون البصريّة لإيتل عدنان"، كتبته شريكة حياتها الكاتبة سيمون فتّال، باحت بأنّ أوّل الأعمال الفنّيّة البصريّة لعدنان تضمّنت رسومًا للخطّ العربي على "الليبوبورو"، وهي منشورات قابلة للطي مستوحاة من الشكل الفني الياباني. هكذا بدأت إيتل "الرسم باللغة العربية"، مُشكّلةً بذلك مسارًا وظيفيًا جديدًا في حياتها، ومتحولةً نحو عالم الفنون البصرية.[11] وتتذكر سيمون أوّل لوحتين رسميَّتين لإيتل بعنوان "سوريا" و"لبنان" على التوالي، رسمتهما عندما كانت المحرّرة الثقافية لجريدة "الصفا" في بيروت خلال السبعينيات: **الفن البصري هو لغة على المرء أن يتعلمها كما يتعلم الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية.** في الواقع، بدأت إيتل محاولاتها الأولى في الرّسم قبل ذلك بأكثر من عقد من الزمن في كاليفورنيا، وذلك في أثناء تدريس فلسفة الفن والجمال في كلية الدومينيكان في سان رافائيل. وقد لجأت إلى الرسم بعدما سألها أحد الأصدقاء: "كيف تدرسين فلسفة الفن ولا ترسمين بنفسك؟" [12]

في إطار مواصلة رحلتي لاكتشاف التعدّدية في المظاهر والتعابير الفنية والسياسية لإيتل واتجاهاتها المهنية، إلى كتاباتها وشعرها، دعوتُ سارة مراد لإجراء محادثة عبر تطبيق Zoom في منتصف شهر حزيران ٢٠٢٢. وسارة هي أستاذة مساعدة في الدراسات الإعلامية في الجامعة الأميركية في بيروت، وباحثة في دراسات المرأة والنوع الاجتماعي/الجندر.

تحدثت سارة إليّ من داخل شقتها في برلين عن الدّلالات في أعمال إيتل، مسلّطةً الضوء على مقال لها بعنوان "نشأت لأكون كاتبة في لبنان".[13] وعلى الرّغم من أنّها

---

[11] **Simone Fattal. "On Perception: Etel Adnan's Visual Art." In Etel Adnan: Critical Essays on the Arab-American Writer and Artist, ed. Lisa Suhair Majaj and Amal Amireh (North Carolina: McFarland & Company, 2002), 89.**

[12] **Fattal. "On Perception," 91.**

[13] **Etel Adnan. "Growing up to Be a Woman Writer in Lebanon." In Opening the Gates: An Anthology of Arab Feminist Writing, ed. Margot Badran and Miriam Cooke (Bloomington: Indiana University Press, 2004), 3-20.**

كانت مطّلعةً على أعمال إيتل من قبل، إلّا أنّ "اللقاء" بينهما حصل في هذا النص. "المرأة" و"الكاتبة" و"لبنان" كانت جميعها مصطلحات ومساحات تمنح شعورًا بـ"القرب من الوطن"، وترتبط بها سارة كونها هي نفسها كاتبة من/ في لبنان. وصفت سارة كيف عادت إلى هذا النص[١٤] مرات عدة للتعمّق في علاقتها الخاصة باللغة، وعلى وجه الخصوص بالكتابة باللغة الإنجليزية كأستاذة؛ فعند قراءة كتابات إيتل وإعادة قراءتها، شعرت سارة بالحاجة إلى الكتابة باللغة العربية عن علاقتها الشخصية بالجندر، وبالجنسانية، وبالأمومة، وهي لغة تستطيع والدتها فهمها. وخلال المحادثة، جاءت على ذكر مقطعٍ من نص لإيتل أثار اهتمامها بشكل خاص:

أتذكره من طفولتي وأعدّه الأصعب فيها، وأنا متأكدة من أنه الأصعب في تلك الثقافة ككلّ، والأصعب للتعايش معه، كان حقيقة أنّنا لم نتمتّع بحياة خاصة ولا بخصوصية أكانت جسديّة أم أخلاقية. الناس في العالم العربي، وبالتأكيد في أيّ مكان آخر في العالم الثالث، لم يُتركوا بمفردهم أبدًا، فهم يعيشون تحت رقابة كلّ من حولهم. [١٥]

درست سارة حدود المجال العام في أثناء بحثها في الخطابات العامة عن الجنسانية والنوع الاجتماعي في لبنان. ولهذا، فإنَّ النظر في مفهوم إيتل للخصوصية، أو انعدامها، في لبنان والمجتمعات والبلدان الناطقة بالعربية، قد زوّد سارة بالأدوات اللازمة لرسم خريطة لأبحاثها. علاوةً على ذلك، حمل النص تلميحات من المفاهيم والتنظيرات النسوية، كما توضح إيتل: **كان تطوير الفكر الخاصة أول تمرد لي، وأول تحرّر لي.** وأشارت سارة إلى أنَّ إيتل لم تذكر كلمة "نسوية" في النص. "لا تستخدم إيتل التسميات"، كما أوضحت، "هذه الفئات والفكَر تنبثق من عملها". لكن، وكما لاحظت سارة، تساهم فكَر إيتل بلا جدال في نسج عملية تفكير نسوية، حيث تروي قصصًا من نشأتها في طفولتها:

---

[١٤] شرحت سارة مراد كيف ألقي هذا المقال كخطاب من قبل إيتل نفسها خلال أحد أوّل مؤتمرات جمعية الدراسات النسائية في الشرق الأوسط (AMEWS) ، والتي كانت تترأسها في ذلك الوقت سعاد جوزيف، وهي صديقة إيتل، وعالمة في الأنثروبولوجيا، وباحثة في دراسات المرأة والنوع الاجتماعي. للاطلاع أكثر على قصة المقال، انظر إلى المقابلة مع سارة "استجواب الحدود" في هذا الكتاب.

[١٥] **Etel Adnan. "Growing up to Be a Woman Writer in Lebanon," 13.**

كانت فتاة في أواخر الثلاثينيات [...] ابنة وطالبة في المدرسة وزوجة مستقبليّة. لم تعدّ كائنًا مستقلًّا على الإطلاق[...] عندما قلت إنني غير مهتمّة بالزواج، اتُّهمت بتفضيلي لأن أكون شخصًا مغامرًا وغير مسؤول. [17]

ربما لم تشر عدنان إلى نفسها بأنها نسوية، لكنها لطالما مضت في طريق المقاومة السياسية ضدّ القوى الأبوية والإمبريالية، وكتبت قصصًا تفكّك أيديولوجية النوع الاجتماعي/الجندر، والصور والأدوار النمطية. وكما أشارت سارة، فإنّ إيتل كتبت أيضًا عن كونها امرأة وكاتبة، وكيف أنّ الكثير كان لا يمكن قوله، أو أنّه يُعَدُّ مخزيًا أو محظورًا كونه من المحرّمات.

ومثل سارة أسأل: باعتبار أنّ إيتل لم تستخدم التسميات، فلمَ يجب عليّ استخدامها حين أرسم صورةً لها؟ ربما يمكنني أن أخطّ بضع كلمات على قماش صغير، وأن أرسم خطوطًا وأشكالًا، وأعرضها في لوحات الألوان التي لا تحتاج إلى جهد. ربما، مثل إيتل، يمكنني أن أطوي الورق المقوى وأتوه في تقنية فن الخطوط. إنّ رسم صورة لإيتل يعني نسج شبكة من الهويات الثقافية. وهذا يعني أيضًا الاعتراف بتأثيرها في الوسائط الفنية والأدبية المتعدّدة، وباحتوائها لتعدّد الحدود عبر الوطنية والجغرافية، وبالتزامها بالمقاومة والنشاط السياسي طوال حياتها. جسّدت أعمال إيتل المتعدّدة ومساراتها مختلف تنقلاتها بين حدود اللغات والوسائط الفنية والدول، لتزعزع مفاهيم "المنزل" أو مكان أو بلد الانتماء (being at home)، واحتمالات التنقّل. وهأنذا أستلهم من الرحلات الكثيرة التي أكملتها أو من تلك الّتي تركتها غير مكتملة. وسأتطرّق إلى هذه المسألة في القسم التالي.

بين المنزل والتنقّل المستمر

المكـــــان

تركت هذا المكان هارعةً إلى كاليفورنيا، ودام هذا النفي لسنوات. بعد ذلك عدت على حمّالة نقل المرضى، وشعرت هنا [لبنان] بأنّني غريبة، منفية من

[17] Etel Adnan. "Growing up to Be a Woman Writer in Lebanon," 12-18.

منفىً سابق. أنا دائمًا بعيدة من شيء ما ومن مكان ما. لقد تخلّت عنّي حواسي واحدةً تلو الأخرى لتعيش حياة خاصة بها. وإذا حدث أن قابلتني في الشارع، فلا تكن على ثقةٍ بأنّ ذاك الشّخص هو أنا. فإنّ محوري لا يقع ضمن المنظومة الشّمسيّة.[١٧]

بالنظر إلى حياة إيتل عدنان وعملها، تتكشّف طرائق الإقامة والتنقّل بأشكالها المختلفة، من "الوجود في الخارج" إلى المنفى، ومن الانتقال إلى السفر. وتكوينها العابر للثقافات والمتعدّد اللغات لم يكن فقط نتيجة تربيتها وخلفياتها المتنوعة والمتوارثة، إنّما استمدّ القوّة من التغييرات المتعدّدة لمكان إقامتها. وحين تعيد إيتل تذكّر تحرّكاتها، فهي تصف بعض رحلاتها بأنه رحلات مغامرة،[١٨] بينما تصف بعضها الآخر بأنه أشكال من المنفى؛ [١٩] فهذه التعريفات والتصنيفات بليغة، ولكل منها مساحته وأهميته الخاصة في صنع هوية إيتل عدنان وتفكيكها. وفي رأيي، إنَّ قصَّة إيتل مزجت بين إيجابية ومرح "المغامرة" وازدراء وألم "المنفى".

ما هو المنفى؟ لا أذكر كيف تعلّمت هذه الكلمة. أتذكر بشكل غامض أنني قرأت إلياذة هوميروس والأوديسة في الصف الفرنسي الابتدائي، حيث استُخدم مفهوم المنفى لوصف العالم الداخلي لبعض الشخصيات. وتُعَدُّ قصَّة المنفى عنصرًا أساسيًا في قراءات التاريخ الأرمني الذي عايشته، حيث نشأتُ في منزل أرمني لبناني. ويُستخدَم تعبير المنفى أيضًا عند وصف حالات الارتحال من لبنان خلال الحرب الأهلية. وبإمكاني أن أستمرّ في تصنيف طبقات المنفى المختلفة، لكن ماذا يعني ذلك لإيتل عدنان؟ فقد كتبت قائلة: **ماذا يعني المنفى إن لم يعنِ الخسارة المدوية وغير الطوعية لجميع الرموز الحية التي تشكل هوية الفرد؟ المنفى يعني طردًا بلا ملاذ.**[٢٠]

---

[١٧] **Etel Adnan. "In the Heart of the Heart of Another Country." In In the Heart of the Heart of Another Country, (San Francisco: City Lights Books, 2005), 4.**

[١٨] **Adnan, "Voyage," 6.**

[١٩] المصدر السابق، **8**.

[٢٠] المصدر السابق، **8**.

بالطبع، إنَّ عدم تقيُّد أو انتماء إيتل إلى حدود مكان واحد أو هوية واحدة، أغنى خيالها الفنّي والسياسي ووسّعه. لكن ما ميّزها هو حبها الكبير للعالم ودافعها المستمر للإبداع. إضافةً إلى ذلك، من الناحية العملية، واصلت العمل مع مختلف الأشخاص والمحررين/ات والناشرين/ات وأصحاب المعارض والفنانين/ات وهواة التجميع أينما ذهبت. هكذا تتذكر تانيا حاجي توما مهنا إيتل أيضًا.

قابلتُ تانيا في ظهيرة مشمسة من شهر نيسان من العام ٢٠٢٢ في مكتبها -وهو استوديو في منطقة التباريس في بيروت. كان المكان مضيئًا وجميلًا ومزيّنًا بالسجاد والوسائد المصنوعة يدويًا. أمَّا النوافذ المقوّسة ذات الزجاج الملوّن والمزيّنة بزخارف الأرابيسك، فتنبثق منها الأجواء البيروتية الراقية. وكما أوضحت تانيا، فإنّ فضولها وحبّها للبنان وللكتابة دفعاها إلى متابعة عملها في الصحافة. وبعد تأليف سلسلة كتب للأطفال مع أحد الأصدقاء، ونظرًا إلى النّجاح الكبير الذي حققته، أسّست دار نشر تميراس في العام ٢٠٠٣.

التقت تانيا بإيتل قرابة العام ٢٠٠٧، وعملت معها على إعادة نشر النسخة الفرنسية من رواية "الست ماري روز"، وهي رواية عدنان الأكثر مبيعًا، وتتحدث عن إعدام امرأة على يد حزب الكتائب خلال الحرب الأهلية اللبنانية. وقد شكّل نشر هذا العمل في العام ٢٠٠٨ بداية صداقة طويلة بين الاثنتين.

وتتذكّر تانيا منزل إيتل بالقرب من منارة بيروت، الذي كان رائعًا ومُشعًا، ومجاورًا للبحر. "كانت إيتل تزور لبنان كثيرًا"، رغم أنها توقّفت عن السفر بالطائرة بعد سن معيَّنة، ولم يكن بإمكانها ركوب القطار إلَّا داخل الدول الأوروبية. نتيجة لذلك، توقفت عن القدوم إلى لبنان. وفي سياق المحادثة، وصفت تانيا منزل إيتل في باريس، في شارع مدام، الدائرة السادسة، بجوار حديقة (جاردين) لوكسمبورغ، كمكان دافئ ومريح، حيث عاشت إيتل في عالمها الخاص مع لوحاتها وفرش الرسم وألوان الغواش الخاصة بها.

ورغم محدوديّة تحركاتها في الفترة الأخيرة من حياتها، إلّا أنَّ إيتل كانت على دراية بكل ما يحدث حول العالم؛ حتى عندما كانت غير قادرة جسديًا على الحركة، استمرّت في تخزين المزيد من المعرفة الاجتماعية والثقافية والسياسية، متجاوزة بذلك الحدود

الجغرافية. وحتى عندما كانت "في المنزل" (at home) وكأنها تنتمي إلى مكان أو عمل ما أو تستقرّ فيه، استمرت إيتل في حالة تنقّل، إذ عملت بصورة دائمة على الإبداع وإعادة الإبداع. من الواضح أنَّ تانيا تقدّر هذا الجانب من إيتل، إذ ظلّت منخرطة سياسيًا وفنّيًا في العالم، حتى حين أجبرها تقدّم السن على التوقّف عن الحركة. وفي سياق المعرفة التي أكتسبها من سماع قصتها، فإنّ الحركة بالنسبة إلى تانيا قد تعكس أحيانًا القدرة على التعلّم، والتواصل، والنمو.

وفي إطار استذكار تانيا لقصة حياتها الخاصة، تتذكّر طفولتها في شارع الحمرا، حين كانت في الثامنة من العمر، غادرت عائلة تانيا المدينة بحثًا عن ملجأ في قريتها في بيت مري. تشرح كيف أنّ الذكريات المكانية الأساسية: البيئة، والشارع، والمنزل، والمدرسة، وكلية البروتستانت قد استحوذت على عقلها قبل المراهقة. بالنسبة إليها، كانت بداية الحرب تعني الانفصال عن حي طفولتها. وبعد انتهاء الحرب، عادت لتجمع صورًا من أحياء بيروت، ولتلتقط "جروح" المدينة، وتعيد بناء علاقة مع جذورها.

وفي قصة تانيا، إنّ التنقّل أخذ منحًى ومعنًى مختلفَين؛ فهي تمكنت في وقت لاحق من السفر من أجل العمل وزيارة مناطق مختلفة من لبنان، بهدف إثراء معرفتها بالبلد. هذا الشكل من التحرّك والتنقّل هو ما شكّل القاعدة الأساسيّة التي بنت عليها مفهومها حول "المنزل/مكان الانتماء".

على الجانب الآخر من منطقة التباريس في بيروت حيث تسكن تانيا، التقيت بنوال، صديقة إيتل القديمة. جلسنا إلى إحدى الطاولات على رصيف "مقهى رصيف" في الحمرا. بدأنا بسرد بعض المقدمات والأحاديث القصيرة، ثمّ ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا في خضمّ محادثة عميقة حول حياة نوال وذكرياتها، وحول إيتل عدنان.

نشأت نوال في بيئة فرنكوفونية، وتلقّت تعليمًا فرنسيًا. طوال سنوات دراستها الجامعية، انضمَّت إلى العديد من الجماعات اليسارية حيث كانت الفلسفة والماركسية والعدالة وازدهار الجامعة اللبنانية والقضية الفلسطينية موضوعات نقاش أساسية ومدار حديثٍ للتأمل. تتذكّر أنها قابلت إيتل وشريكتها سيمون فتّال قبل اندلاع الحرب

الأهلية عندما كانت تعمل في مجلة الصفا، وكانت إيتل حينها المحرّرة الثقافية في تلك الجريدة. تستذكر نوال اللقاءات والجلسات التي جمعتهما، لا سيما في غاليري وان، وهو معرض فني تجاري أنشأه هيلين ويوسف الخال.[٢١] كما تتذكّر نوال في إحدى المناسبات، في حفلة أنس، عندما شاهدت سيمون ترقص على طاولة بلياردو بينما كانت شريكتها إيتل مفتونة بجمالها. كان أشبه باستعراضٍ رقصت فيه سيمون "رقص عربي"، حيث كانت تشعّ جمالًا. وبعد فترة وجيزة، اندلعت الحرب الأهلية، وفي الفترة نفسها، تزوّجت نوال وانتقلت مع زوجها إلى منطقة الظريف في بيروت.

وفي حديثنا عن حياتها في أثناء الحرب الأهلية، وعن تحركاتها الخاصة بين الأماكن، روت لي نوال قصة مؤثّرة من أيام الحرب المرعبة: ففي أحد الصباحات المبكرة، زارت مجموعة من الجارات شقتها لتمضية "صبحية" معها. كانت نوال مضطرة إلى مُغادَرة المنزل، لكنها لم تستطع اختتام الزيارة، فقد رفضت النساء الذهاب قبل أن تقدّم القهوة لهنَّ. أعلمتهنَّ نوال بأدب بأنها سعيدة بزيارتهنّ لكن يجب أن تمشي في طريقها. وكانت إحداهنّ امرأة كبيرة في السن تحمل لقب الحجة، أمرتها بالجلوس وقالت لها: "نحن ما منتطفل عالعالم"، (أي نحن لا نقحم أنفسنا في حياة الآخرين). لم تكن نوال قد سمعت هذا التعبير من قبل، وبعدما تعلمته في ذلك اليوم، أصبح عصيًا على النسيان. وشرحت لها النساء أنّهنَّ في الحقيقة جئن لحمايتها من حاجز نصب تحت شقتها من قبل رجال الميليشيات الذين يقبضون على المسيحيين.

تتذكر نوال هذه القصة، وما خلّفتهُ فيها من أثرٍ في ذلك الوقت. حينذاك، كانت لا تزال غير مدركة كلّيًا لمخاطر الحرب، وربّما هؤلاء النسوة قد أنقذن حياتها. وعلى الرّغم من الأهوال الّتي أحاطت بتلك الفترة، تقرُّ نوال بأنّ تلك كانت أفضل سنوات حياتها، إذ تعلَّمت دروسًا مهمة في الحياة، وكوّنت صداقاتٍ من خلفيات متنوعة، وشعرت بروابط الصداقة و"الأختية" مع نساء الحي الذي تعيشُ فيه. ومع ذلك، في العام ١٩٨٢، تركت نوال "بلاد المجانين"، من أجل حماية ابنتها، كما قالت لي.

---

[٢١] **Elina Sairanen, "Gallery One," Mathqaf, 26 February, 2021. https://mathqaf.com/2021/02/26/gallery-one/**

حين انتقلت نوال إلى باريس، شكّل العيش بعيدًا من لبنان تحدّيًا لها. وقد راودها شعورٌ بالتعاسة وعدم الرضا عن محيطها الجديد؛ فبالنسبة إليها، الابتعاد من المكان الذي نشأت فيه، في وقت أزمة سياسية، هو حالة معقّدة يصعب اجتيازها، وهي ممزوجة بمشاعر الذنب، وفقدان الإحساس بالهوية، و"العلقة" (stuckedness).[٢٢] تعبّر عنها إيتل بشكلٍ جميل:

المنفى ليس مجرد خسارة. إنه خسارة لا يمكن تعويضها. إنه فقدان أقرب ما يكون إلى هوية المرء، وهو ما يرتبط بالتاريخ وبالجغرافيا. وقد أصيب العرب بجروح عميقة في كليهما ...

بالنسبة إلى نوال، إنَّ العودة إلى "الوطن" بعد انتهاء الحرب لم تكن خطوة وطنية ولا قومية، بل كان هدفها نقل الشعور بالانتماء إلى ابنتها حتى تشعر بأنها تنتمي إلى هذا المكان: حتّى "تحس هي من هالبلد".

أمَّا إيتل، فكان الشعور بالانتماء (أو عدمه)، وتنقلاتها، ووجودها هنا وهناك، وحالة المنفى الذي عاشته، كلها أمورًا ارتبطت بحياتها، وعناصر انعكست باستمرار في عملها. علاوةً على ذلك، هذه الأمور شاركتها إيّاها إلى حد ما النساء اللائي قابلتهنَّ خلال رحلتي البحثية. وإنّ ما يربطهنّ بإيتل، إلى جانب صداقاتهنّ وشراكاتهنّ وتعاونهنّ طويل الأمد، هو تجربتهنّ المشتـرَكة بطريقة أو بأخرى في التنقّل، والمنفى، والتحرّك، والحركات.

وفي سياق استطلاعي لقصة إيتل، وقصص أولئك اللواتي عرفنها، ومع معرفتي أيضًا أنَّ المنفى خلال الحرب هو تجربة مؤلمة تؤذي كيان المرء الداخلي بعمق، إلّا أنّه لم تكن لدى الكثيرين/ات في لبنان الفرصة الثمينة في الانتقال إلى مكان آخر أو إلى الخارج بحثًا عن الأمان والمأوى. لا شك في أنّ تتبُّع تحرُّكات إيتل وصديقاتها غالبًا ما يعكس الامتياز

---

[٢٢] غسان الحاج (**anthroprofhage**) ، "غالبًا ما ينطوي تخيل العالق على إحساس بأنك محاصر في مكان لا مخرج فيه. من المفارقة أن تشعر بأنك عالق في مكان مفكك لأنَّ التفكك عادة ما يعني تعدد الفتحات. أن تكون عالقًا في مكان مفكك أمر متناقض إلى حد ما ولا معنى له حتى. لكن هذا ما يشعر به البعض في لبنان. 'عالق في مكان يمكن أن تذهب فيه الأمور إلى أي مكان'. هذه حالة من ما بعد الحداثة شديدة الغرابة"، تويتر، ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٠.

والسلطة وشبكة العلاقات التي تساندهنَّ. كما أنّ قصص إيتل في التنقُّل الدائم تُعَدُّ ذات مغزى يسمح بالبحث في هويتها الثقافية والإبداعية المتعدّدة. بيد أنّ هذه القصص تحمل دلالة أعمق من ذلك، فكل تحرّك قامت به إيتل دفعها إلى تسلُّق سلّم في موقعها الاجتماعي، والوصول إلى العديد من المساحات والأماكن والأشخاص.

تذكّر إيتـل حول الإرث والخسارة

إذًا، ذهبت في هذه الرحلة المتنقلة، وتجوّلت في بيروت لزيارة المساحات الإبداعية والنساء اللواتي صادقن إيتل عدنان. كما وصلت الرحلة أيضًا إلى الفضاءات الرقمية حيث لا إمكانية للقاء إلَّا عبر الكاميرا والشاشة. أبحرت في النصوص، وحدّقت بالأعمال الفنية، وقرأت المقالات والفصول والكتب. خلال هذا المشروع، تطرّقت محادثاتي مع النساء اللواتي عرفن إيتل إلى كيفيّة التقائهنَّ بها وتعرُّفهنَّ إليها، وكيف يتذكرنها الآن أيضًا بعد رحيلها؛ كيف نتذكّر إرثها الذي يحمل موقعها الاجتماعي وسعيها إلى التواصل والتعبير عن مفاهيم ومشاعر متعمّقة، وإلى مزج المواقف السياسية مع الإبداعات الفنّية والشاعرية.

تتذكّر تانيا إيتل وهي ترشف قهوتها: "كانت شديدة الاحترام في التعامُل مع الجميع". وبالنسبة إليها، كان لإيتل وجهان: روح عجوز وروح طفل؛ فقد أتقنت العديد من الحِرف، وصقلت نظرة تحليلية للعالم، وفي الوقت نفسه، كانت شخصًا لطيفًا وحنونًا ويحبّ الأكل كما الأطفال.

وتذهب أليس للحديث أكثر عن شخص إيتل وشخصيتها، مذكّرة بآراء إيتل السياسية ومواقفها: "لقد كانت مقاتلة ومناضلة". ووفقًا لها، فإنّ إيتل لم "تجرِ خلف" الثروات والشهرة على الإطلاق؛ في الواقع، أخبرتني أليس بأنها تبرّعت بمعظم ما كسبته من معارضها الفنية للجمعيات الخيرية والمنظمات الإنسانية: "كانت تسعى في خير البشر، وخير الإنسانية".

من جانبٍ آخر، تتذكر نوال مثلية – أو كويرية— إيتل وعلاقتها مع سيمون كعلاقة عنوانها البساطة والصدق والانفتاح والحياة الطبيعية. وهي لم تكن بحاجة إلى الحديث عن الجندر أو عن ميولها الجنسانية، لكنها عاشت الأمر على أنه أمر واقع. وبالمثل، وإن كان من وجهة نظر مختلفة، تؤكد سارة مراد أنَّ إيتل لم تمثّل دورًا، وأنَّ مقاومتها السياسية وأيديولوجيتها النسوية انبثقتا من عملها. وفي سياق ارتباط سارة العميق بكتابات إيتل، وجدت أنَّ إيتل جمعت بين حدّة الذكاء، والصدق، والروحانية، والشاعرية. وتشير سارة إلى أنَّ إيتل "تركت لنا الكثير لنفكر فيه". فما تبقّى من إرثها، بالنسبة إلى سارة، هو قدرتها على الدمج بلطف بين الأمور الشخصية والسياسية، والفردية والكونية، والشاعرية والأكاديمية. لقد تجاوزت إيتل عدنان هذه الانقسامات، لأنها اختبرت "الوجود" بين هذه الحدود. هذا التوسّط بين الحدود هو ما تعدّه سارة مصدر إلهام بخصوص إيتل. وبالنظر إلى أنها حاضرة في عالم أكاديمي يُشعرها بالغربة بشكل متزايد، فإنَّ عمل إيتل يشجّعها على تضمين نفسها في كتاباتها وأبحاثها.

وبينما كنتِ أغوص في رحلتي أكثر لأفهم كيف أثّرت إيتل في أشخاصٍ مختلفين، شعرت بمرساةٍ أُسقطت، لأعود إلى نقطة ارتكاز مهمة أردتها في رحلتي، وهي المساحات الإبداعية في بيروت. كان لإيتل أيضًا صدى لدى الفنانين/ات الشباب/الشّابّات هنا.

في المراحل الأولى من هذه الرحلة، تواصلت مع رسّامة شابة (ر.) كانت عضوةً ناشطةً في استوديو Space 27، وهو مساحة فنية / استوديو عمل ومساحة مجتمعية في بيروت. أُنشِئَتْ هذه المساحة من أجل توفير مكان آمن وشامل للإبداع والإنتاج الفني. وتواصل "ر" حاليًا دراساتها العليا في الفنون الجميلة في باريس. وخلال حديثٍ غير رسمي لنا، لاح في الأفق موضوع الإرث المتعلق بإيتل؛ فقد التقت بها "ر" قبل عدّة سنوات في أثناء عملها على بحث أطروحة الماجستير، وهي تتذكّر اللقاء على أنه محادثة عفوية وودّية في منزل إيتل في شارع مدام في باريس، كان أشبه بـ"الصبحية". كانت إيتل بالنسبة إليها شخصية يمكن أن تتطلّع إليها وفنانة كويرية من لبنان يمكن أن تطمح إلى تحقيق إنجازاتها. ومن خلال مشاركتها في مساحات فنية إبداعية في لبنان، تشعر "ر" بأنَّ الأمل لا يزال موجودًا "لبقيتنا [الفنانين/ات الشباب/ الشابات]"، وبأنَّ إنجازات إيتل هي مصدر إلهام. وفي هذا الصدد، سألتها: كيف نتعامل مع إرث أشخاص مثل إيتل؟ وكيف يمكن الاستفادة منه؟

أخبرتني "ر" كيف شجعتها إيتل على مقابلة عددٍ من الأشخاص، وساعدتها على تكوين علاقات بنّاءة. كان باستطاعة إيتل الوصول إلى الكثيرين/ات من الأشخاص، والعديد منهم/نَّ ذوو/ذوات خلفيات قوية ومتميزة. كان هذا جزءًا من إرثها في ذلك الوقت: ضمان أن تستمر العلاقات، وأن تكون أبواب الوصول أكثر انفتاحًا، وأن تكون لدى الفنانين/ات الشباب/الشّابّات الشبكات التي يحتاجون/جنَ إليها لإنتاج أعمالهم/هنَّ وعرضها.

لقد تجاوز صيت إيتل عدنان وإرثها الحدود الوطنية، ووصلا إلى المشاهد الأدبية والفنية العالمية. ومع ذلك، كما هو الحال مع استوديو Space 27، نجد عددًا من المساحات الإبداعية في بيروت، مسقط رأسها، للعديد من الفنانات اللواتي يشاركنها سياستها، وشغفها بالفن، وإبداعها. من هذه الأماكن أيضًا نجد Haven for Artists (أي "ملاذ الفنّانين/ات")، وهي منظمة ثقافية نسوية أُسِّسَتْ في العام ٢٠١١ و"تعمل على مبدأ تقاطع الفن والنشاط الشبابي"، وتوفّر مساحة آمنة للفنانين/ات الشباب والناشطين/ات الكويريين/ات.

زرتُ دار هايفن في الأشرفية في منتصف تموز ٢٠٢٢ لألتقي بنديم، أحد الباحثين فيها. كنت حريصةً على رؤية الطريقة التي يتذكّر بها هذا المكان إيتل كشخصية وفنانة كويرية. استهلّ نديم حديثه قائلًا: "إيتل شبه أسطورية... يبدو كأنها تعيش في المستقبل، مسافرة إلى الخارج لدراسة العلوم الإنسانية، في وقت كان بالكاد يسمح للنساء بتلقي التعليم". كان لإيتل امتيازات، كما صورها نديم، لكنها عملت من خلال هذا الامتياز بدلًا من إخفائه. وفي روايتها الشهيرة، "الست ماري روز" (١٩٧٨)، حاكت إيتل قضايا الجندر والعنف والحرب والنظام الأبوي والخلفية الطائفية، من خلال سرد قصة ماري روز، وهي امرأة دافعت عن حقوق الفلسطينيين ليتم أسرها من قبل حزب الكتائب اليميني.

وفي سياق حديثنا عن تذكّر إيتل وهويتها الكويرية، تحدّث نديم عن دور سيمون فتّال في "صنع" إيتل. ولدت سيمون في دمشق وترعرعت في لبنان، واتخذت أيضًا مسارات تعليمية ومهنية مماثلة لإيتل. درست الفلسفة في مدرسة الآداب في بيروت ثمّ في

السوريون. وأسّست في ما بعد مهنة لها في الرسم والنحت والنشر. ومن خلال دار النشر "بوست أبولو برس" التي أسستها سيمون في العام ١٩٨٢، نشرت سيمون أعمال إيتل، بينما قامت الأخيرة بالرسم على غلاف العديد من الأعداد. [٢٣]

كانت علاقتهما تكافلية. ذكّرني نديم بأننا عند سرد قصة حياة إيتل وإنجازاتها (أو أي فنان أو شخصية أدبية أخرى في هذا الشأن)، غالبًا ما نميل إلى إنشاء قصة تدور حول الشخص، ككائن فريد، وكمبدع يقف بمفرده. يُستبعد الشركاء، والأقارب، والأصدقاء، والمحرّرون، والنّاشرون، والقيّمون، وجامعو التحف والنقاد عن الصورة. وكما أشار نديم، فإنّ سيمون أدّت دورًا حيويًا في كونها العمود الفقري لإيتل، وفي دعمها لها طوال حياتها، من نشر كتبها إلى الاعتناء بها جسديًا.

عندما يتعلّق الأمر بظهور إيتل وسيمون كشريكتين، تصنّف كويريتهما عادةً باستخدام مصطلحات القرابة بدلًا من الفِكَر القائمة على الحبّ. إنهما "شريكتا العمر"، وهو تعبير قد يمنحهما شكلًا من أشكال الحرية والأمان. لذلك، سألنا أنفسنا في حديثنا: ما معنى التعبير عن علاقتهما بهذه الطريقة؟ كيف يؤثّر هذا على الطريقة التي نتذكّر بها إيتل كشخصية كويرية؟

وكما أنّ مصير كلّ رحلة أن تنتهي، فإنّ هذه المسيرة البحثية التي سلكتُها يجب أن تصل إلى نهاية. عندما بدأت هذا المشروع في آذار ٢٠٢٢، أتيحت لي الفرصة لإعادة قراءة إيتل عدنان من عدسات مختلفة. هذه الرحلة الّتي استمرت لأربعة أشهر سمحت لي بمقابلة أشخاص عرفوها/نها وعملوا/نَ معها أو استلهموا/نَ من عملها وسياستها. في الإجمال، هذه المحادثات دفعتني أنا والأشخاص الذين/اللواتي أخبروني/ننني بكلّ هذه التفاصيل والفريق في ورشة، إلى تذكُّر إيتل كصديقة وزميلة، ومعلّمة وفنانة ومؤلّفة. كما حثّتنا على التفكير في شخصيتها متعددة اللغات والثقافات "متغيرة الشكل". وفهمت أكثر الطريقة التي رُسم فيها أسلوب حياتها وعملها، وتحسينهما من خلال المناخ السياسي والسياق الذي تعيش فيه. ساعدتني

---

[٢٣] **"About Simone Fattal." https://www.simonefattal.com/**

هذا الرحلة على تذكُّر مقارباتها السياسية والنسوية في التّعبير والتحدث باستمرار ضد القوى الاستعمارية والأبوية والإمبريالية، من دون غض النظر عن موقعها الاجتماعي المساعد في وصولها إلى الأماكن والأشخاص المتميزين، وإلى شبكة علاقات نافذة.

إنّ هذا النص الّذي كُتب بعد أشهر قليلة من وفاة إيتل في شهر تشرين الثاني من العام ٢٠٢١، يشرّع الأبواب أمام أسئلة حول كيفية تأثّرنا بإرث الناس بعد وفاتهم. من الأسهل والأكثر تحدّيًا استكشاف حياة أولئك الذين واللواتي حالفهم/نَّ الحظ وإرثهم/هنَّ بما يكفي لكسب بعض الشهرة، سواء بين المقيمين/ات في مجتمع ما، أم في المجتمع أو سكان هذا العالم كلّه. يبدو ذلك أسهل لأنَّ ثمّة الكثير ممّا يمكن الحديث عنه، والكثيرين/ات من الناس للتحدث معهم/نَّ. ولكن لهذا السبب بالذات، يجلب الأمر معه أيضًا تحدياته الخاصة.

كيف السبيل إلى دراسة إرث شخص ما بعد وفاته؟ ما زلت لا أملك إجابة محددة بشكل جيّد. لكن بالنسبة إلى شخص مثل إيتل، أعود إلى المحادثة التي أجريتها مع صديقتها نوال.

بالنّسبة إلى نوال، مثّل موت إيتل خسارة صديقة، وهو الأمر الذي عانته باستمرار في السنوات القليلة الماضية؛ ففي الآونة الأخيرة، مات العديد من أصدقائها وأصدقاء زوجها. لقد باتا يعيشان في حالة حزنٍ وحدادٍ مستمرة، لأنهما يشعران بأنَّ عوالم حياتهما تتغير بشكل كبير مع هذه الخسائر. ومع ذلك، تؤكّد نوال أنَّها في الوقت الذي تصاب بالحزن، يتعامل زوجها مع ذلك بروح الدعابة وبأسلوبٍ إيجابي؛ فهو يعثر على أصدقائه مجدّدًا في كتاباتهم/نَّ وفنونهم/نَّ. وقد واسى نوال بأنَّ إيتل قد تكون غائبة جسديًّا، لكنها تعيش من خلال مجموعتها الضخمة من الروايات، والقصائد، والمقالات، واللوحات، والمنسوجات، وجميع إبداعاتها.

ورغم أنَّ إيتل لم تعد موجودة، إلّا أنَّ دافعها للإبداع وللالتزام بالمقاومة ولحب الشعر لا يزال قائمًا، وهو ما عبّرت عنه بأشكال متنوعة بين أولئك الذين/اللواتي تعرَّفوا/نَ إليها، وأولئك الذين/اللواتي "قابلوها/نها" من خلال عملها، والأشخاص من المساحات الإبداعية العامّة في بيروت، المدينة العزيزة على قلب إيتل.

لائحة المراجع

Adnan, Etel. “Further On.” In In the Heart of the Heart of Another Country, 39-54. San Francisco: City Lights Books, 2005.

Adnan, Etel. “In the Heart of the Heart of Another Country.” In In the Heart of the Heart of Another Country, 1-20. San Francisco: City Lights Books, 2005.

Adnan, Etel. “To Be In A Time Of War.” In In the Heart of the Heart of Another Country, 99-116. San Francisco: City Lights Books, 2005.

Adnan, Etel. “Voyage, War and Exile.” Al-’Arabiyya Vol.28 , 5-16. 1995. http://www.jstor.org/stable/43192725.

Badran, Margot and Miriam Cooke. Opening the Gates: An Anthology of Arab Feminist Writing. Second ed. Bloomington: Indiana University Press, 2004.

Fattal, Simone. “On Perception: Etel Adnan’s Visual Art.” In Etel Adnan: Critical Essays on the Arab-American Writer and Artist, edited by Lisa Suhair Majaj and Amal Amireh, 89-102. North Carolina: McFarland & Company, 2002.

Hadjithomas, Tania and Khalil Joreige, dir. Ismyrna. Film still. 2016.
Sairanen, Elina. “Gallery One.” Mathqaf, 26 February, 2021. https://mathqaf.com/2021/02/26/gallery-one/.

Weaver, Kathleen. “The Non-Worldly World: A Conversation With Etel Adnan,” Poetry Flash, May 1986 (no.158).

عدنان، إيتل. "عن نهاية السلطنة العثمانية: فصل من سيرة". مجلة بدايات، 2016.
https://bidayatmag.com/node/686

مقابلات التاريخ الشفوي

في رفقة إيتل عدنان

الرحيل

مقابلة مع نوال

نارود سروجيان: فينا نحكي عنّك، شوي نتعرّف عليكِ، وين خلقتي ووين عشتي؟

نوال: كنت كل حياتي بمدرسة راهبات داخلي Ecole des Soeurs de Besançon، وبعدين درست بجامعة فرنسيّة إسمها L'Ecole Superieure des Lettres. درست فلسفة وبنفس الوقت صرت إرسُم، بفترة ١٩٦٦-١٩٦٨، وحصل أيار ال ٦٨ بفرنسا [شهر من الإعتصامات الطلابية والمطلبية في فرنسا] وأنا طلعت من هيدا الجيل.

ووقتها بلبنان كان في حركة يسارية اسمها FFE- front des forces etudiants – أو جبهة القوات الطلابيّة، نشأت بالمدرسة الفرنسية، الليسه الفرنسيّة على المتحف. تألفت من ثلاثة أساتذة فرنسيين، أستاذ الفلسفة وأستاذ التاريخ وأستاذة الأدب الفرنسي، شكّلوا مجموعة مع التلاميذ للنقاش الفلسفي، ماركس والماركسيّة إلخ. ونشأ نادي اسمه نادي المتساوين le club des égaux.

ن.س.: نادي المتساويين؟

ن.: إيه، le club des égaux
ومنه انخلق بالجامعات الحركة اليسارية ال **FFE**، مع ناس أكيد بتعرفيهن اليوم، مثل جاد تابت، سمير فرنجيه، مارون بغدادي، أمين معلوف، فواز طرابلسي، غسّان فواز، مروان الحص، سليم نسيب، اليكّو بيضا، منى نعيم، آن فرنجية. كنا، ما بعرف، خمسين؟ ستين؟ كانت حركة يساريّة، وكانت الأكثرية من الكليات الفرنسية بالجامعة اليسوعية (ESIB - Ecole Superieure des Lettres). وكان لنا اهتمام بوضع الجامعة اللبنانية وتطويرها لرفع مستواها ولنعمل صلة وصل بين كل الجامعات. ما متذكرة، إذا كان في إهتمام بالقضية الفلسطينية داخل المجموعة. كان أكتر عن البلد، المساواة، الحركات النقابية، الجامعة اللبنانية، هيدا كان اليسار. حركة يسارية ديمقراطية من أجل المساواة والعدالة الاجتماعية، كانت حركة مطلبية بل سياسية، اهتمامها لبنان. وأنا كنت بهذا اليسار، وبنفس الوقت كنت أرسم وأدرس الفلسفة. وفي يوم، صديقتي أخذت رسوماتي وعرضتهم في CCU، المركز الثقافي الجامعي، مركز فتحوه الرهبان اليسوعيين بالبسطة، كصلة وصل بين الجامعات الفرنسية واللبنانية. وما كان في أي نشاط بهذا المركز، بس كان مكان نتلاقى فيه خارج البيت، لنتعارف وندرس ونناقش.

ن.س.: هي أي سنة إذا بتتذكري؟

ن.: [تتذكّر] يمكن بال ١٩٧٢-١٩٧٠

ن.س.: دغري قبل الحرب، يعني كم سنة قبل الحرب

ن.: إيه، عشيّة الحرب. وثم أتى شخص، فنان مصري، محي الدين اللبّاد، وهو كان أوّل

وأفضل غرافيكي بالعالم العربي، وسأل عن الرسامة، واتصل فيي. وكان اللبّاد مدير أوّل دار نشر لكتب الأطفال بالعربي، قبلها كنّا نترجم الكتب الأجنبية وننسخ الرسومات.

ن.س.: هو أسس ال—

ن.: فعلًا هو، وكان مدير الدار. كل الإصدارات تبع دار الفتى العربي بتلاقيها اليوم بال AUB. دار الفتى العربي كان قرار من المجلس الوطني الفلسطيني. أبو عمار هو يلّي قرر إنه يجيب للأطفال العرب كتب لهم، من بيئتهم، محيطهم، تربيتهم، مكتوبة من كتّاب ورسامين عرب. محي الدين اللبّاد هو يلّي وجهني إلى الرسم للأطفال، وأنا قلت له إني ولا مرة رسمت للأطفال، وما كان عندي الثقة بشغلي. أنا كنت بحب الرسم والألوان خاصة، لكن محي دفشني إلى الرسم للأطفال. قال لي: إنتِ ارسمي وأنا بساعدك على تقييم عملك وبعرضلك القصة وبناقشها معك. وإذا الرسمات غير جيدين ما منطبعهن، منرجع منشتغلهن. محي علّمني على الشغل الدقيق والاهتمام بالتفاصيل. بالنهاية إشتغلت عدّة سنوات مع محي، ورسمت حوالي عشر كتب للأطفال لدار الفتى العربي، وفرحت بهالعمل. وللأسف صارت الحرب ورجع محي الدين إلى مصر.

وفي سنة ١٩٧٥، في الذكرى العاشرة للثورة الفلسطينية، بهذه المناسبة كان لمحي مشروع نشر عشر بطاقات بريديّة (postcard) لفنانين عرب. وطلب مني أن أشارك. رسمت وكانت لرسمتي سيرة من بين العشر رسمات انعملت بوستر، ويافطة بباريس ٥ أمتار ب ٥ أمتار، لعرض مسرحية. لكن محيي غضب لأن حصل هذا بدون أخذ إذن أو حقوق النشر الخ... وكان عندي رفيقة طلبت مني أن أدرّس الفلسفة بمدرسة الكرميل السان جوزيف

وبعدين تعرفت على فواز طرابلسي ...

ن.س.: من ال FFE؟

ن.: لا، ما كنت أعرفه لفواز وقتها، هو قلّي كان بال FFE بس أنا ما كان معي خبر. بس كان عندي رفيقة مقرّبة من فترة طويلة، من الطفولة. كنت حبها كتير، وهي كتير ذكية وجدية، وهي تزوجت شخص كان بمنظمة العمل الشيوعي OACL. أنا كنت علّم وارسم، ما كان عندي هدف واضح بالحياة. كنت أعمل الأشياء يلّي على باي، يلّي بحب أعملها. ورفيقتي كانت كتير جدية، هي جرتني لأدخل إلى المنظّمة: هون كل شي بيتناقش، بينفهم، بينتفض. يلا تعي معي عالمنظمة، دخلت على المنظمة إجر لقدام وإجر لورا. وبالأخير بأيلول ١٩٧٠، عرفت فلسطين والاحتلال والحرب بالأردن واللاجئين الفلسطينية، وكل القضية. وعرفت أنه في مقاومة فلسطينية. كانت المنظّمة مدرسة بالحياة، كانت هائلة، مدرسة بالنسبة لإي، فعليًا مدرسة تعلمت فيها أشياء كتير، الحياة، اللغة، الفلسفة،

تعرفت على كثير أشخاص ما كان ممكن اتعرف عليهن ببيئتي، تعرفت على ناس بيتكلموا اللغة العربية الجيدة، ولهم ثقافة عربية ما كنت أعرفها، وهون قرأت كتير. فلسفة: ماركس، انجلس، البيان الشيوعي...

أنا درست فلسفة بجامعة فرنسية، ماركس ما كانوا يحكوا عنه، لكن عن هيغل وسارتر وهايدغر، وأبدًا مش ماركس وانجلس. فكريًا وثقافيًا عجبتني المنظمة، بالإضافة تعرّفت على فواز.

ن.س.: بالحرب، أول الحرب؟

ن.: تجوزت ب ٢١ نيسان ١٩٧٥، الحرب كانت بلّشت ١٣ نيسان، وفورًا انتقلت إلى بيروت "الغربية". وتركت الأشرفيّة وسكنت بشقّة بالظريف. ما كنت أعرف حدا، ما كنت واعية بالخطر، بمكان كله مسلمين وأنا مسيحية، بس بالحقيقة، كانوا كتير مرحبين فينا بالحي، وحامينا.

ن.س.: يعني ما كنتي منبوذة كأن؟

ن.: أبدًا. أول شي، ما كنت واعية على الخطر، كل الجارات كانوا كثير بعاد عن بيئتي، كانوا كتير مختلفين عن محيطي العائلي، عن محيطي الاجتماعي والثقافي. وكانوا مصدر حشرية لإلي، وأنا مصدر حشرية لإلهن، لهيك كانوا كتير قراب مني، كتير جاهزات ليساعدوني، ويستقبلوني. حسّيت حالي غريبة كتير لكن مرحب فيني، لهيك كانوا كتير قراب مني، كتير جاهزات ليساعدوني، ويستقبلوني. حسّيت حالي غريبة كتير لكن مرحب فيني، لهيك كنت كتير مبسوطة. وفعليًا فيني قول إنه بلحظة معينة من حياتي فكّرت إنه أفضل سنين حياتي كانت هي سنين الحرب الأهلية. رهيب قول هيك، بس هيك كنت حس. تعرّفت على ست، كانت أميّة، وجدًا ذكيّة، وحلوة، وصارت رفيقتي، وشي ما بيتصدّق، كانت مثيرة للإهتمام أكتر من رفقاتي بالجامعة، عندها معرفة بالحياة، كانت إستثنائية، وكانت فقيرة، زوجها شوفير.

أنا كنت ساكنة ببناية حديثة، مش شقة فاخرة، بس دار وغرفتين، وهي كانت عايشة مع ٦ أطفال بشقة صغيرة، ببناية جنبي، بالطابق الأرضي. هو هيك: المدخل من المطبخ؛ من المطبخ إلى غرفة ومن الغرفة إلى غرفة ثانية. ركّبتْ ٦ تخوت فوق بعض، للست أطفال، وبالغرفة يلّي جنب المطبخ، كان صالون وسفرة، وغرفة نوم للزوجين، وفي المطبخ حطّتْ مكنة خياطتها وكانت تخيط كل شي نقلًا عن الأفلام العربية. بدّك تايّور بتنقلك وبتعملّك ياه، بدّك كبّوت بتعملك ياه، بدّك بنطلون... كانت تعرف تخيّط كل شي. كانت تستأجر الكاسيت فيديو، لتنقل تايور فاتن حمامة بهيدا الفيلم مثلًا وتوقّف الفيلم-الكاسيت لتدقّق بالقبّة. وكانت أحوالها صعبة وتتديّن من هيدا الزرار، ومن هيدا الدنتال! كانت تحب تلبس شي فرو، شي دانتيل. صارت صديقتي، فعليًا صديقتي.

خلال سنين الحرب ما كنت واعية للخطر، بالإضافة إنه زوجي كان يضل مسافر وكنت لاقي حالي أوقات تحت القصف لحالي. وبتذكر بنتي وهي كتير صغيرة، كل ما تسمع الضرب كانت تناديلي "ماما حمّام حمّام"، بدها تفوت عالحمّام على أساس بدنا نحتمي داخله. وبعدين بال١٩٨٢، فلّيت وقلت لزوجي: هيدي بلد مجنونة، إذا بدّك تجي معنا أهلا وسهلا وإذا ما جيت، أنا بدي احمي بنتي.

ن.س.: كم سنة قعدتوا هونيك؟

ن.: قضّينا حوالي عشر سنوات.

ن.س.: يعني رجعتوا بعد ما خلصت الحرب تقريبًا؟

ن.: إيه، رجعنا بال ١٩٩٢، ١٩٩٣ هيك شي. وكان كتير صعب نعيش بفرنسا بوقت لبنان فيه حرب.

ن.س.: كنتوا بباريس؟

ن.: إيه كنا بباريس، كنت مكتئبة، ما كنت أقدر عيش.

ن.س.: كنتِ هونيك بس كأن قلبك هون

ن.: مش بس أنا. كتير ناس غيري كمان، كانت كتير صعبة. هلّق أنا قرّرت إرجع على البلد، يا ريت ما رجعت. عم بحكي جد، يا ريت ما رجعت. أنا يلّي قرّرت اترك البلد، وأنا قرّرت إرجعله! كان عندي همّ: إنه بنتي تعرف نحن من هالبلد. وبعدين تروح وين ما بدّها. بس بالأول لازم تعرف أن جذورها هون، بيها مؤرّخ، وجد بيها مؤرّخ. وأنا منّي متعلقة لا بالجنسيّة ولا بالشعب ولا بشي، أنا ما بحس بشي خصوصية لبنانية، فيني كون بنفس الوقت كتير فلسطينية، كتير سورية، بس بحب البلد وفيي حبه من بعيد!

ن.س.: وبعد الحرب شو عملتِ؟

ن.: بعد الحرب وقت جيت، أول شي، إتصلتْ فيي مديرة المدرسة البروتستانتية، وطلبت مني استلم المكتبة. بالواقع، كنت أشتغل بمكتبة تجارية بباريس. وتحمّست بشغلي بالمكتبة، وكنت شغوفة فيه: كيف اشتغل مع الأطفال، كيف حببهن الكتب والقصص والقراءة والقصائد، بالفرنسي. ما في فروض ولا إملاء ولا قصاص ولا تقييم وعلامات. مكان الأطفال حرّين وفرحين، وعم يتعلموا كتير أشياء من دون ما يدروا! وفي يوم إتصل فيي شخص لأساعده باختيار كتب لتوزّع للأطفال الغير ميسورين ودعاني على اجتماع عند نجلا خوري، وهي مختصّة بالحكايات الشعبية وميولها يسارية، وأنطوان بولاد من مدرسة ال IC وشاعر يساري أيضًا، وكلهن يسار فكنّا موجودين أربعة، ببيت نجلا مع الشخص يلّي دعاني واسمه ألبير أبـي عـازار وهو أيضًا من

مرجعية يسارية. قالوا لي: عم نفكّر نلملم كتب وإنتِ تساعدينا باختيار الكتب القيمة ومن ثم نوزعها على الأطفال ليقروا. وفي الحديث أتت فكرة المكتبة العامة. سألتهم: "ليه ما منعمل مكتبة عامة؟" وخبرتهم هذه الحادثة: مرة عم نمشي سوا بباريس، أنا وبنتي، وعمرها ٦ سنين.

قالت لي: "كل أربعاء منجي لهون".
- سألتها: "شو في هون؟ بتتركوا المدرسة وبتجوا لهون؟ كيف؟"
- "إيه ماما هون المكتبة العامة"، قالت لي، "في كتب هون، كتب عامة، لإلك ولإلي ولكل الناس. هيك قالت المعلمة".

اكتشفت المكتبة عامة. وأُغرمت فيها. فيكِ تجلسي وتقرأي كل شي بتريديه من كتب ومجلات وجرائد، وأيضًا تستعيري. وكل شي مجانًا. ما كنت صدّق، وفهمت، إن عندك حقوق بهيدا البلد، وفي شي اسمه ضريبة، ومقابل الضريبة عندك أرصفة، عندك حدائق عامة، عندك مدارس عامة، مكتبات عامة، عندك حماية طبية، وحماية اجتماعية، معاشات، فهمت كل هالنظام من خلال المكتبة العامة! فهمت شو يعني الواجبات، عندك واجب دفع الضرائب، دفع الرسوم والضرائب، عندك مسؤولية. وهيدي منّا حالة بلادنا.

ن.س.: الاجتماع بالتسعينات عم نحكي؟

ن.: الاجتماع كان بال ١٩٩٨، كنا فريق من أربعة، قمنا بالفكرة وطورناها وبعدين قلنا بدنا يكون عددنا أكبر. شكّلنا مجموعة من عشرة أصدقاء، وحدا قال: ما عنا مصادر مالية، ونحن ما منعرف شي اسمه NGO منظمات غير حكومية أبدًا. وأول ناس ساعدونا كان المعهد الفرنسي. دعونا إلى معرض الكتاب الفرنسي سنة ١٩٩٨، أعطونا مساحة مجانًا لنعلن عن مشروعنا: أول مكتبة عامة لمدينة بيروت. مدّينا حصيرتين وطراريح، وسلل كلها كتب للأطفال، كل واحد تبرّع بكتب، شي تلاتين كتاب، وحطينا لوح وكتبنا عليه "ما هي القراءة بالنسبة لك؟"

قعدنا، وكانت معي رفيقتي جومانة. وخلال المعرض اجونا نساء اثنتين فرنسيات، مونيك طنوس، ودومينيك فوكس ريغو، وهي تمثّل هاشيت. كان في يافطة مع الشعار "ادعموا أول مكتبة عامة لبلدية بيروت" بالفرنسي أكيد.

- قالت: شو؟ بدكن تعملوا مكتبة عامة لبيروت؟
- إيه
- قالت: أنا هاشيت وجاهزة لأعطيكم كتب فرنسي.
- جاوبتها: لا لا، شكرًا.

جومانة بصوت منخفض قالتلي: مجنونة! كيف لا شكرًا؟

-أنا: قبل الكتب بدنا أشياء تانية أساسية.
- جومانة: بس نحن بحاجة لكتب فرنسية
-أنا: نحن بحاجة بعدين، شو منحطهن عالأرض؟
وعلى العالي، صارحت "مدام هاشيت": أعذرينا مدام ما عنّا رفوف، ولا طاولات، ولا شي، وهيدا كله بحاجة إله قبل الكتب.
-"مدام هاشيت": أنا ما فيي أعطيكم إلا كتب.
قلت لها: بعرف، لهيك قلتلك شكرًا.

الموقع يلّي عطتنا اياه البلدية [بلديّة بيروت] بالباشورة كان كله مكسّر ووسخ. المهم مرقوا العشرة أيام للمعرض الكتاب، وإجتنا "مدام هاشيت" من جديد: شو؟ لقيتوا حدا يموّلكم الرفوف وترميم المبنى؟ ما بدكم كتبنا؟

ردّيت: لا لا، ما بدنا. شكرًا

قالتلي أنا موافقة معكن ح مولكم. عملولي ميزانية، قديه بدكم للطاولات والكراسي والرفوف الخ.

جومانة وأنا فرحنا. عملنا حسابات وجبنا تسعيرة بمبلغ ١٥ ألف فرنك وأرسلناه ل"مدام هاشيت" بالايميل.
جاوبتني بسرعة، رح ابعت ٢٠ ألف دولار!!

وبعدين بال ٢٠٠٤، كان بدنا نعمل تاني مكتبة بالجعيتاوي، بالحديقة العامة. عاطيتنا البلدية أوضة كلها مكسّرة، ونحن رحنا طلبنا من المحافظ تصريح، لنكبّر المكان، بس كان بدنا مصاري لنعمره. جبنا مهندس وعملنا تسعيرة. وأنا بالكولاج بالمكتبة بدق التلفون الخليوي: ألو. أنا دومينيك، "مدام هاشيت"

سألتني: شو هي مشاريعك؟

قلت لها نحن هلّق عم نرمّم مكتبة وبحاجة لبنائها، بدنا نعمّر حيط ونكبره، بدنا نبلط ونطرش الخ.

-قدي الكلفة؟

- شي ٣٠ ألف دولار!

قالتلي فيي أعطيكن ٤٠ ألف يورو، هيك. قالت لي عندي ثقة فيكن، هيك! لازم نارود تروحي تشوفيها للمكتبة بحديقة اليسوعية. كثير حلوة!

ن.س.: أكيد...

ن.: بلّشنا نرمّم بتشرين الأول. وهيك تجربتي بالسبيل: كانت حلوة، غنية، كلها مغامرات وأصدقاء. لكن صار وقت أشخاص أكتر شباب ياخذوا مطرحي. صحيح إني شغوفة

وقلت لو إني بقيت بعد، لأن عملنا تلات مكتبات فقط، عملنا وحدة إضافية، ب مونو كمان، إنه لو إني بقيت كنت يمكن جبت بعد مصاري لنعمل غير مكتبات بس خلص... بدك كمّل؟

ن.س.: إيه إذا بدّك

ن. قلتي بدك نحكي عن إيتل. ما حكينا

ن.س.: لا، بس حكينا عن أشيا كتير حلوة. آخر كم سنة شو كنتِ عم تعملي مشاريع؟

ن.: عم برسم. أنا برسم، بحب أرسم، وفعليًا ما تعلّمت أبدًا الرسم. وما برسم منيح، وفي ناس متل جوزي وبنتي وأصحابي بحبوا رسمي ما بعرف إذا الغير بحب رسمي. هلق عندي رفيقتي نجلا خوري-بالمناسبة كتير امرأة مثيرة للاهتمام- كل حياتها بتجمّع كل شي هو ثقافة شعبيّة، العديّات، الحكايات، الأمثال، القصص، الخ. وهلّق عاملة نوع من معجم، مجموعة كلمات من العربي الدارج، وهني بنفس الوقت من العربي النحوي، وهي أيضًا بتحب رسمي، قالتلي نوال فيكِ ترسمي رسوم توضيحية؟ وهيك صار.

وهلّق عم ارسم لإبن بنتي الصغير، نور. بعده كتير صغير، رسمت له الأحرف، ألف أرنب، ب بطة، ث ثعلب، ي ياسمين، واو وردة، ج جنينة. وبادرت بمشروع، ما بعرف إذا رح يمشي: قلت لحالي لا قراءة ولا رسومات ولا شي، الناس بحاجة تآكل وحالتنا بالويل. لهيك بادرت بمشروع إنشاء تعاونية، وعملت مجموعة صغيرة لإنشائها.

ن.س.: إذا منقدر شوي نحكي قصصك مع إيتل

ن.: ما عندي قصص عنجد مع إيتل، وقلت لفواز إنتَ يلّي لازم تعمل المقابلة. ما بده يعمل ولا مقابلة عن إيتل، هوي كتير كان يحبها لإيتل، ونحن، قبل بأسبوع من موتها...

ن.س.: كنتوا هونيك؟

ن.: إيه، تلفنت لنا سيمون وهي عم تحكينا، وإيتل طلبت منها: قولي لفواز خلّيه يجي يشوفني، أنا منّي منيحة. قالت سيمون: مبلى مبلى ح تكوني منيحة.

قال لها فواز: شو في؟

سيمون: إيتل عم تقول إنّه عبالها تشوفك لأنها مش منيحة، بس هي كتير منيحة، بس على بالها تشوفك.

وسكّر التلفون وقلّي بدنا نروح ع باريس؟ أخدنا الطيارة ورحنا قبل بأسبوع من موتها. رحنا، كل يوم كنّا عندها، كل يوم نروح لعندها. وعنجد، آخر مرة كانت —كيف

بدي قلّك— صحتها تدهورت خلال سنة، خلال السنة الفاتت ما شفتها هيك. كانت صحتها عادية— بتحكي، بتمشي.

لكن بتشرين الثاني، لمّا رحنا شفنا إيتل، كانت مطوية بالنُصّ، كل الوقت عم تعنّ، كل الوقت موجوعة. عم يوجعوها اجريها. كل الوقت تقول لفواز إنها بحاجة تحكيه خلّيك حدي، وأنا إضهر. حكيتْ مع فواز.

سيمون خبّرتني: بتعرفي نوال ما عم تنام بتختها. غيّرتلها التخت جبتلها تخت خصوصي، عشان بيوجعها ضهرها وبتوجعها اجرها. ما بتقبل تنام بتختها، قلتلها وين بتنام؟ قالتلي عالكرسي محل ما هي قاعدة!

ضلّينا أسبوع، قلت لفواز: منرجع بالربيع منشوفها. كان كتير مزعوج كيف وضعها، وقال لي أكيد منرجع بالربيع. وصلنا لهون بعد جمعة كانت ماتت. فواز خُوت، قلت له منيح إنك رحت، كنت كل حياتك عم تقول كيف ما رحت ودّعتها.

بحب رسماتها، ولقلّك صراحة أنا لمّا بشوف لوحاتها، لمّا بشوف الجبال، فيني اتخايلهن كبار، بشوف صور اللوحات على الانترنت، بفكّرهن كبار مثل الأفق. ولما بشوفهن صغار بتعجّب، ليش عم تعملهن صغار؟! مستحيل، على طول في شعور بالضخامة بتعطيني ياه، بينما هي بترسم بشكل مصغّر ويترسم مسطح، مش على حمّالة الرسم، عالطاولة.

ن.س.: لما كنتي بفرنسا كنتي تشوفيها؟

ن.: إيه، مرسمها بقلب البيت. عندها طاولتها، وألوان وريش وأقلام. آخر فترة، لما خلصت مع الزيت والأكريليك جابت نوع من أقلام حبر مائية، وآخر لوحات كانت بالأسود والأبيض. كان غريب. سيمون كان رأيها أنه كان رهيب يلّي عملته بالأسود والأبيض.

ن.س.: هي بتحب الألوان يعني؟

ن.: أنا انصدمت، سألت فواز إيتل عم ترسم بالأسود؟

بالرغم إنه إيتل إلها مزهرية رائعة عنّا بالصالون مع ورود بالأسود وأبيض من ١٠ أو ١٥ سنة. بس بالنسبة إلي إيتل على طول بالألوان، بس هيدا الفاز مع الورود السود نادر و بجنن.

ن.س.: بس شفتيها بفرنسا يعني، ما شفتيها هون؟

ن.: قبل؟ مبلى هون أكيد. بعرفها من السبعينيات. بعرف إيتل من زمان، قبل حتى ما اتعرّف على فواز. وفواز كان يعرفها بغض النظر عني.

ن.س.: كيف تعرفتي عليها؟

ن.: كنت اشتغل بجريدة الصفا، وإيتل كانت مسؤولة الصفحات الثقافية فتعرفت عليها. بعدين اشتغلت بغاليري وان، غاليري لعرض الفن، وإيتل كانت من رواد الغاليري.

ن.س.: كنتِ بغاليري؟

ن.: إيه قبل الحرب اشتغلت بغاليري وان، وبعتقد هي أول غاليري بلبنان ومؤسسها كان الشاعر وناشر مجلة شعر، يوسف الخال، ومرته هيلين الخال، وعنده غاليري فنون. وأنا متل ما قلت لك، كنت ارسم وتوظّفت بهالغاليري. مرّات يجوا سيمون وإيتل عالغاليري.

ومرّة جيت عند صديق، اسمه مارك. كان الباب مفتوح فدخلت. البيت كان شوي معتم، وفي موسيقى عربية. ناديت: مارك؟

ما سمع مارك، أنا سمعت الموسيقى. دخلت، كان مارك وضع طاولة بيليارد مكان طاولة السفرة. وعلى طاولة البيليارد كانت سيمون عم ترقص. على الطاولة. وإيتل قاعدة على كرسي عم تطلع عليها بغرام... كان مشهد رائع، أنا فتت وشفتها بدون ما احكي: إيتل، مبهورة وسيمون عم ترقص عربي. بتجنّن.

وبعدين لما تعرفت على الكوبل إيتل-سيمون كانت العلاقة ببساطة طبيعية، وكنتْ مندهشة بالبساطة. علاقة زوجين مغرومين ببعضهن، لهيك كنت معجبة فيهن، إيتل ما كانت بحاجة لتحكي عن الجندر، ولا سيمون. كان كل شي عادي، طبيعي. هيدا كل شي بقدر قوله عن علاقتي مع إيتل. كنت حبها كتير. كانت تصغي لي كأي شخص مهم. وكانت ساذجة مثل الأطفال، يقظة لكل مشاكل العالم — كانت مرات تقول أشياء رهيبة، فظيعة بلهجة كثير عادية!

ن.س.: بدها تفهم كل شي

ن.: كانت يقظة لكل العالم. كان قلبها واهتمامها لبنان أولًا وفلسطين وسوريا... وهنود أميركا. كان همّها العالم كله. كانت تسأل عن الكل وتساعد كتير عالم. واليوم هي ماتت. من كم يوم كنت عم قول ما معقول إنه كل أصحابنا يموتوا قبلنا. هاي طريقة موت بطيء.

رياض الريّس مات، مارون بغدادي مات، جوزيف سماحة مات، سمير قصير، كلن كانوا رفاقنا، أحبابنا. مش معارف لكن أحباء! ادوارد مات، محمود درويش مات، كلهم من كم سنة. منيح أنه فواز بمزاج جيد، أنا بيأس...

ن.س.: شو بيقول؟

ن.: بيلاقي الناس بكتاباتهم، بقصائدهن، بلوحاتهن. وهو مبسوط إنه انشهرت إيتل بآخر حياتها، هو كتير مبسوط بهيدا الشي. كل الوقت كان بيقدّر الكتابات، القصائد، الفلسفة، ولوحات إيتل. فهيك هو ما بشوف إلا الناحية الإيجابية. أنا بقول إنه معقول كان لازم كل هالوقت؟ بقلّي ما هيدا كتير منيح...

ن.س.: كأن هيك فينا نلتقى بعد بالكتب، والرسم

ن.: إيه هيك، هيك فواز بيفكّر.

ن.س.: كأنها عايشة بعدها من ورا هودي الأشياء

ن.: من خلال كتابات الناس، بس هل شي ما بيمنع أنه في رفقات قراب ماتوا. إنه حبينا جوزيف سماحة، جوزيف هو يلّي عمل جريدة الأخبار، بس أكيد جوزيف اليوم كان ضد الأخبار، أكيد كان مع الثورة، كان جديًا يساري. مات سكتة قلبية ما كان عمره ستين سنة. مارون بغدادي، بتعرفيه المخرج؟ كتير كتير كنّا أصحاب ومنحبه، أنا لما مارون مات، كثير تفاجأت. مارون وقع بمنور الدرج تبع بيته ومات. سمير، سمير قصير كنّا كتير كثير أصحاب. ولما ماتت إيتل فاجئتنا، مع إن لما شفت إيتل بهيديك الحالة قلت كيف بدها تعيش هيك، كل الوقت موجوعة، والدوا يلّي بتاخدوا لما تتوجع كان خطير على قلبها، لهيك سيمون، ما فيها تعطيها كتير منه...

ن.س.: عنده أعراض جانبية يعني؟

ن.: قلت لسيمون حرام، تحكي لي: الدكتور قلها حبة واحدة بالنهار، لازم ننطر. بس ما تخايلت ح تموت بهالسرعة. لخبطت بيني وبين سيمون مرة، عيتطلي سيمون. بس كانت على طول تنادي لفواز، فواز أنا بحاجة احكي معك، اضهر أنا من الصالون قول خلّي فواز يضل معها .

ن.س.: بتعرفي كيف هلّق سيمون؟

ن.: سيمون كتير كتير متألمة، كتير حزينة، ما بعرف، هلّق ابن أخوها كمان مات، هوبير عمره ٥٠ سنة، قتلوه، وكان المفضل عند سيمون.

ن.س.: مش شوكة واحد، شوكتين

ن.: تمامًا، فواز كتبلها ليعزيها. صدمة كانت كتير كبيرة إيتل ومن ثم هوبير. على الفيسبوك كتب هوبير عن إيتل إنها كانت شمس! كانت إيتل الشمس! سيمون اليوم عم تعيش أوقات كتير قاسيين، وسيمون بعد موت إيتل اكتأبت وبعدين كتبت لفواز إنها أخذت رماد إيتل عالولايات

المتحدة، عالجبال بكاليفورنيا، بتعرفي إنه أبوها سوري عثماني، بس ما راحت أبدًا على سوريا؟

ن.س.: إيتل؟

ن.: هيدا سؤال كنت بحب اسألها ياه، أمها يونانية، وبيها سوري، سوري من الامبراطورية العثمانية. أمها يونانية من إزمير لما كانت إزمير جزء من اليونان، وبتحكي بالبيت يوناني، بس مع بيها بتحكي تركي، بالمدرسة فرنسي، وبعدين بأميركا الإنجليزي. إيتل بتحكي اليوناني، التركي، الفرنسي، الإنجليزي وشوي العربي، مكسّر.

ن.س.: كنتوا تحكوا فرنسي سوا؟

ن.: أنا إيه، بس مع فواز الإنجليزي، كانت كتير فرونكوفون، وبعدين اختارت تعيش بباريس، مش بكاليفورنيا. بس على طول كانت تقول إنه قلبها بلبنان، بتحب لبنان.
وأنا كمان، وقت كنت بفرنسا، كنت كتير تعيسة. كان بدي أعمل بحث، فواز شجعني لأعمله، عن الذاكرة الجماعية في القرن التاسع عشر. لأن بالوقت يلّي كان لبنان بلد ينتج الحرير، كنّا نصدّر الحرير على ليون بفرنسا، وهونيك بمدينة ليون يعملوهن قماش من الحرير. لحتّى هيدي الخيطان الحرير تتلاءم مع الآلات الفرنسية، إجوا نساء من ليون ليعلّموا النساء اللبنانيات يغزلوا. هودي النساء يلّي علّموا اللبنانيات، كتب عنهن دومينيك شوفالييه ــ وهو أنثروبولوجي كبير ــ وقال لي فواز جربي تشوفي إذا بعد في بذاكرة الناس اليوم شي بذاكرتهن عن هالنساء. لهيك رحت على منطقة ليون، على ضيعة اسمها كري Crest، لكن ما لقيت شي. حتى رحت عالمقبرة ومصانع الحرير تحولوا لمصانع رايون [نوع من القماش]، وأصحاب المصانع رفضوا يستقبلوني، لأنهم نفسهم أي جدودهن كانوا أصحاب معامل الحرير. بس ما عملت بحث جدّي... ما بعرف اذا كل هيدا مفيد...

ن.س: مبلى، مبلى، ما في شي مش مفيد، عم تحكي عن تاريخ، تجارب. مرسي كتير على هالمقابلة، عنجد.

استجواب الحدود

مقابلة مع سارة مراد

نارود سروجيان: بالبداية، عندي بعض الأسئلة المفتوحة إلك. أنا مهتمة أعرف كيف سمعتِ لأول مرّة عن إيتل عدنان؟ متى كان ذلك أو في أي مرحلة حياتية لكِ؟ وكيف صار "اللقاء" الأول، خلينا نقول، مع إيتل؟

سارة مراد: أنا لا أتذكّر متى سمعت بها للمرّة الأولى، ولكن عندما كنت أحضّر للدكتوراه في الإعلام والدراسات الثقافية في الولايات المتحدة -وكنت حينها أعيش في الولايات المتحدة منذ بضع سنوات وأكتب أطروحتي- بدأت في القراءة عن، أعني أنني بدأت في التعمّق في الكتابات الذاتية النسوية، وكتابة السرديات الشخصية كمدخل للفكر والتنظير النسويّين، لأبحاثي. ولكن أيضًا على المستوى الشخصي، عندما بدأت أبحث عن هذه النصوص وأقرأها، وجدت فيها شيئًا حميميًا كنت بحاجة إليه.

فوقعت على نص لإيتل عدنان بعنوان Growing up to be a Woman Writer in Lebanon والذي كُتب في الثمانينيات، وقد صادفته في كتاب مختارات من الكتابات النسوية العربية يُدعى: Opening the Gates A Century of Arab Feminist Writing. كان الأول من نوعه، وهو يجمع نصوصًا نسوية من القرنين التاسع عشر والعشرين، أي من فترات زمنية متعدّدة، ويتضمن أنواعًا مختلفة من الكتابات. قُسِّم الكتاب إلى عدّة أجزاء، وكانت مقالة إيتل الأولى في هذا الكتاب، تحديدًا في جزء بعنوان "Awareness" الوعي. جذبني العنوان نفسه، لأنني في ذلك الوقت، كنت أتعمّق في التفكير في ما تعنيه الكتابة لي وفي ما تعنيه هذه التسمية "امرأة كاتبة". ولهذا السبب كنت أقرأ كثيرًا، مثل ما كنت عم خبرك، الكثير من هذه السرديات النسوية التي تتداول علاقة المرأة بالكلمة المكتوبة. فهذا العنوان الذي احتوى على الكلمتين: "كاتبة" و"لبنان"، شدّني إليه، إذ كانت المرّة الأولى التي أجد فيها نصًا يحاكي تجربتي كامرأة كاتبة من لبنان.

وطبعًا قرأته على الفور. وما جذب انتباهي أيضًا هو أنه كان بالإنكليزية. لقائي الأول مع إيتل كان مع كاتبة عربية ناطقة باللغة الإنجليزية، مثلي في ذلك الوقت، تتحدّث بخفّة عن ترحالها بين اللغات وعبرها. ولذلك تعمّقت في النص بالفعل... وكانت طريقتها في التحدث عن نفسها، والحديث عن الكثير من الأمور الأخرى من خلال التحدث عن نفسها، مع بعضهما – أريد أن أسميها المسافة - كما لو أنَّ شخصًا ما من الخارج ينظر إلى الداخل. ربما هي المسافة بين إيتل الكاتبة/الراوية وإيتل الابنة والتلميذة. وكأنها أرتني كيف أنظر إلى نفسي وكيف أكتب عنها؛ عن الـ"أنا" التي صنعها التاريخ والمجتمع والعائلة واللغة في منطقتنا نحن، وفي لبنان تحديدًا، الـ"أنا" التي أنطق بها اليوم. أعتقد أنني كنت بحاجة إلى ذلك.

رغم مصادفتي النَّصَّ في وقت "متأخر" أكاديميًا، أي عندما كنت أنهي أطروحتي، وهي عن الظهور العلني للهويات والخطابات الجنسية والجندرية غير النمطية في الإعلام والثقافة اللبنانيَّين، إلَّا أنه عاد ليظهر في مقدمة رسالتي، حيث بدأتها باقتباس من هذا النص، شعرت بحاجة إلى وجود شيء من هذا النص هناك بطريقة ما. أعتقد اليوم أنني أردته كتذكير لنفسي بضرورة العودة إليه، والعودة إلى إيتل للتفكير معها بشكل أكثر تعمّدًا.

والاقتباس الذي كنت أخبرك به، تتحدث فيه إيتل عن نقص في الخصوصية، إذ تقول إنَّ في المجتمعات العربية -ولكن أيضًا إذا كنت أتذكّر بشكل صحيح، في عالم الجنوب بشكل عام- يفتقد الفرد مساحة خاصة يكون فيها بمفرده، بعيدًا من رقابة السلطات العائلية والدينية والأخلاقية: تتحدّث عن رغبتها في أن تكون غير مرئية، لا يحكُم عليها أحد، لا يراقبها الآخرون، لا تراقبها أمها التي جسّدت بالنّسبة إليها السلطة الأولى في حياتها، فتقول: كان تطوير أفكاري الشخصية هو أوّل مساحة خاصة بي امتلكتها، والتي لم يكن لأحد الوصول إليها. وتماثلت مع هذه الفكرة. ووجدت فيها تلخيصًا لواقع الرقابة الذاتية والمجتمعية التي تُفرض علينا كأفراد وتقيّد قدرتنا على العيش والتفكير والخيال.

وهكذا، بعد بضع سنوات، وبعد عودتي إلى لبنان، بدأت كتابة مقالة شخصية أتأمّل فيها علاقتي بالكتابة، وعلاقتي باللغة. لأنّني مع مرور الوقت -بعدما ابتعدت قليلًا من النص ثم عدت إليه مرّة أخرى- أدركت أنَّ هناك شيئين ساعداني نوعًا ما في صوغ أفكاري. يبدو لي كما لو كنت بحاجة إلى إيتل للبدء في التفكير في هذا الموضوع والبدء في الكتابة عنه، أي علاقتي باللغتين الإنجليزية والعربية، وهذا التذبذب بين اللغتين، ولكن أيضًا علاقتي بفكرة الأمومة بأكملها، وعلاقتي بوالدتي. لأنَّ هذين الموضوعين كانا نوعين من التوترات كنت قد رسوت عليهما في نصّها. كانت تلك طريقة تعرُّفي إلى إيتل عدنان.

ن.س.: والأنثولوجيا أو مجموعة النصوص التي كنت تتحدثين عنها، Opening the Gates، هل كانت كتابات نسوية من لبنان أو من المنطقة العربية؟

س.م.: من المنطقة العربية، إيه. وبعض النصوص مترجم وبعضها الآخر باللغة الإنجليزية. لذلك كان العثور على هذا الكتاب حادثة جميلة جدًا لأنه مصدر رائع كمان؛ فبالإضافة إلى النصوص المختارة، هو يحتوي على نبذات عن الكاتبات. في نبذتهما عن إيتل، تشير مارغو بدران وميريام كوك (محرّرتا الأنثولوجيا) إلى أنَّ مقالة إيتل هي بالأصل نص لمحاضرة كانت قد ألقتها

في مؤتمر لجمعية الدراسات النسائية في الشرق الأوسط (Association for Middle East Women's Studies). وهي جمعية أكاديمية أسّستها عالمة الاجتماع النسوية، اللبنانية-الأميركية، سعاد جوزيف في الثمانينيات. وأنا أعمل منذ فترة الآن مع سعاد على مشروع بحثي. وأعتقد أنَّ ما حدث هو أنه حين ماتت إيتل، أردت أن أكتب شيئًا عنها، ربما نوعًا من التأبين، وكنت سأكتبه بالعربية.

من هنا، تحدثت مع سعاد لأنني كنت أعرف أنهما كانتا صديقتين. كانوا يعرفوا بعض من الولايات المتحدة. وكنت قد اكتشفت، قبل نحو عام واحد ربما، من سعاد، أنها هي من دعت إيتل لإلقاء المحاضَرة. لذلك، أتذكر أنني سألت سعاد عنها من جديد فأخبرتني بأنّها تتذكّر أنها دعت إيتل للحضور وإلقاء هذا الحديث. كان من أوائل اجتماعات هذه الجمعية والتي كانت الأولى من نوعها في أمريكا الشمالية في تركيزها على دراسات المرأة في الشرق الأوسط. وسألت سعاد: لماذا دعوتِ إيتل؟ بعد وفاة إيتل، أرسلت إليها هذه الأسئلة كوني أدركت أنني بحاجة إلى أن أعرف أكثر، وكانت تردّ هي على أسئلتي. فأجابتني بأنَّ إيتل كانت صديقتها، لكنها كانت أيضًا بمَنزلة المرشدة لها. وكانتا تتحدثان كثيرًا عن أنسابهما الفكرية (intellectual genealogies)، ومساراتهما، كيف انتقلتا، وكيف وصلتا هنا. وكانت ترى أنَّ لدى إيتل الكثير لتقوله لهذه المجموعة من المثقفات والأكاديميات والكاتبات والطالبات. من هنا، أرادت منها أن تشارك الآخرين/الأخريات هذه التجربة، وهكذا ألقت المحاضرة.

فسألت سعاد: أخبريني أكثر، كيف تلقّتها الحاضرات؟ فقالت إنّها عندما أنهت إلقاء كلمتها، كان الجميع يشعر بالتقزّم ويريدها أن تتكلّم أكثر، وتتذكّر أنها هي أيضًا أرادت أن تسمع المزيد - يعني، من فضلك لا تتوقفي. وأتذكر عندما شاركتني سعاد هذه القصّة، لأنني أحسستُ بالشيء نفسه عندما قرأت نص هذه المحاضرة المنشور في الأنثولوجيا. شعرت بأنَّ شخصًا ما كان يعطيني أخيرًا شيئًا كنت أتألم للحصول عليه، وبعد أن تتذوّقه تريد المزيد. وتقول لي سعاد إنّ عند انتهاء المحاضرة توجهت مارغو بدران وميريام كوك إلى إيتل وأخبرتاها بأنّهما تريدان نشر هذا النص ضمن كتاب المختارات النسوية.

وأنا أحب هذه القصة وأستذكرها الآن لأنها تتضمن هؤلاء المفكرات والكاتبات والباحثات النسويات، وتظهر أهمية العلاقة بينهنَّ والمساحات النقدية التي خلقنها لصياغة فكر نسوي عربي، وتوثيقه، وتعميمه. وتعيدنا القصة إلى أهمية الكلمة المكتوبة؛ فكتاب المختارات هذا يوثّق الحدث، والحديث مع سعاد عنه يعيد خلق مشهد هذه الغرفة المليئة بنساء يفكّرن مع بعضهنَّ. هو يحفظ لنا السجل

المكتوب للمحادثة الشفوية. ربما أتكلم على كل ذلك لأقول إنَّ تناقل هذا الإرث الفكري النسوي عبر الزمن ووصولنا إليه هما نتيجة عمل جماعي. لذلك كنت سعيدة لأنَّ إحداهنَّ قرّرت نشر أفكارها في مكان ما.

إيه، فكنت أخبرك بأنَّ إيتل ألهمتني لكتابة مقالة شخصية باللغة الإنجليزية، ومسألة اللغة والكتابة بالإنكليزية كانت صراعًا منذ بدأت الدكتوراه. في مرحلة ما، تساءلت لمن أكتب، ولماذا أكتب، وكنت أفقد قبضتي على اللغة العربية، ولم أعد أعرف كيف أكتب بهذه اللغة، على الأقل ليس هذه الأفكار، بل هذه المواضيع. بناءً على ذلك، كنت بحاجة إلى البدء في الكتابة، ورؤية أفكاري على الورق. بدأت كتابة المقالة ربما في العام ٢٠١٧ لأقدمها في ورشة عمل نظّمتها "ورشة المعارف" مع معهد الأصفري في الجامعة الأمريكية في بيروت وكانت حول الأرشيف والأرشفة النسوية، إذا كنت أتذكر بشكل صحيح. وقد تلقيت دعوة للمشاركة وكنت أفكر: عَمَّ سأكتب؟ وقلت: بتعرفي شو؟ بدي إرجع لإيتل. وكأنَّ لإيتل ونصّها هذا موقعًا خاصًا في أرشيفي النسوي الشخصي.

لذلك كانت هذه الفرصة عندما بدأت في كتابتها، وما زلت. نحن نتحدّث عن العام ٢٠١٧، ما زلت أكتب، ما زلت أعيد كتابتها. لذلك هي مقال أواصل كتابته، ثم أبتعد منه، ثم أعود إليه. كما لو كان، من خلال الكتابة، نوعًا أدائيًا من النص أحتاج إليه ... إنه مكتوب بهـذه الطريقـة، يبدو نوعًا ما أنَّ هناك تقلّبًا دوريًا فيه. وفي كلّ مرة أعود إلى المقالة بشكل مختلف، ولكن أيضًا لغتي وصوتي وطريقة كتابتي تتغيّر. ولم أصل أبدًا إلى مكان أشعر فيه بأنني أنهيت كتابتها. لم أُتِمَّ الكتابة حتّى الآن.

ولكن في العام ٢٠٢٠ أو في العام ٢٠٢١ -نسيت- كان هناك عدد خاص في موقع "الجمهورية"، ولديهم قسم يسمّى "الهامش"، فعملوا على عدد خاص عن الأمومة. لذلك، عندما دُعيت للمساهمة قلت: لِمَ لا؟ لأنني أخبرتك بأنَّ هناك جزءًا عن اللغة وجزءًا عن الأمومة، وهما متشابكان حقًا. لكنني فكرت: حسنًا، هذا تحدّ، الكتابة عن هذا الموضوع ولكن بالعربية. العودة إلى إيتل ولكن هذه المرة بالعربية. وكان هذا مهمًا بالنسبة إليّ، لأنَّ منذ العام ٢٠١٩، كنت قد بدأت أكتب أكثر باللغة العربية، كنت أرغب في استرداد علاقتي باللغة العربية، وأردت المحاولة والكتابة مرة أخرى وبدأ الأمر يحدث تدريجيًا. كنت أعيد التعرّف إلى نفسي وإلى صوتي بالعربية. وهكذا، عندما جاءت هذه الدعوة، كان التحدي أن أكتب عن موضوع الأمومة باللغة العربية، ما يعني أنَّ أمّي ستكون قادرة على قراءة المقال.

فهذا يتعلّق بوالدتي أيضًا، لأنّها لا تُجيد القراءة باللغة الإنجليزية؛ هي لا تفهم اللغة الإنجليزية جيّدًا. لذلك، من مقالتي الإنكليزية

عن علاقتي بنص إيتل ولدت هذا النص الآخر بالعربية بعنوان "كيف تتخلصين من أمّك"، ويتحدّث عن شخصية المرأة الكاتبة وعن علاقتها بأمّها، ويأخذ إيتل وسيمون دي بوفوار كشخصيّتَين للتفكير في هذا السؤال. ثم بعد وفاة إيتل، انكببتُ على التأبين الذي أردت أيضًا كتابته باللغة العربية، وكان عليّ ترجمة أجزاء من نصوصها لمقالي السابق، فترجمت بعض السطور من نصوصها إلى العامية؛ وللتأبين كانت الترجمة بالفصحى، وكتبته كرسالة إليها. ربما ما أريد الوصول إليه من خلال عرض هذه التفاصيل هو أنَّ أثر إيتل لم يقتصر فقط على أفكاري عن اللغة، ولكن اشتمل أيضًا على علاقتي باللغة وممارساتي اللغوية.

وللتأبين كنت قد اخترت مقتطفًا من كتابها In the Heart of the Heart of Another Country [في قلب قلب بلد آخر] الذي عدت إليه مرّة أخرى في صيف الـ٢٠٢١، وكان من أقسى أيام الانهيار في لبنان: آب الماضي، الصيف الماضي، وكنت أعيد قراءته. كنت قد قرأته من قبل، ربما أجزاء منه، ولكن عندما جلست مع هذا الكتاب مرة أخرى شعرت بالخوف وبالألفة. كانت تتحدث عن بيروت في السبعينيات ثم في التسعينيات. وشعرت بأنَّ كلماتها لها صدى كبير اليوم أيضًا. وكأنَّ الواقع هو نفسه، لم يتغير. على كلّ حال، كان عليّ أن أترجم مقتطفات من هذا الكتاب أيضًا، وكان ذلك جميلًا لأنني عندما ترجمتها إلى الفصحى، أعجبني وقع كلامها باللغة العربية. والرسالة، إيه، كنت عاطفية جدًا، وأردت هذا -لم أخجل بما كنت أظهره من تأثيرها عليّ. أؤمن بأنّ على الكتابة النسوية أن تظهر أثر الأخريات وتأثيرهنَّ علينا. علاقتي الفكرية بإيتل علّمتني ذلك، أن لا وحدة في الكتابة.

ن.س.: إيه، إيه. بعتقد أنها كانت شخص عاطفي جدًا بكل ما فعلته. كان لديها هذا الطابع الدنيوي، كما لو كان عليها أن تفهم كلّ ما يحدث حولها وتشارك فيه.

س.م.: إيه، بالتأكيد. هناك شيء في كتابتها هو ... يعني، ترى حدّة العقل وترى الصدق، ولكن هناك أيضًا شيء شاعري جدًا في طريقة تعبيرها عن نفسها وفي وصفها للمدن والطبيعة والبشر وكيفية استخدامها للغة، وحتى هناك أمر روحانيّ -هناك روحانية فيها أيضًا. في كتاباتها ظهور واضح للروح الكاتبة.

وشيء آخر أجده رائعًا هو أنها استمرّت في العمل والابتكار والإبداع. لم يكن هناك إحساس مثل: آه أوكي، الآن وصلت إلى هذه السن، لذلك ستتقاعد أو ستتوقّف عن العمل؛ فمسيرة إيتل الفنية في الرسم انطلقت في عمر متأخّر، أليس كذلك؟ وهناك شيء ملهم جدًا في ذلك، ألّا يكون العمر عائقًا، خاصة عند النساء. بطريقة ما تختفي النساء بعد عمر ما. ليس لدينا

هذا العدد الكبير من الأشخاص الذين يجسّدون شيئًا مختلفًا لنا، وأعتقد أنَّ إيتل فعلت ذلك. بتذكّر إحدى آخر مقابلاتها على Youtube، كانت لا تزال فضولية للغاية ولا تزال متحمّسة جدًا في طريقة تعبيرها عن أفكارها.

إذًا، أريد أن أقرأ المزيد، لأستكشف المزيد عنها، بغية التّفكير أكثر حول إرثها، وما تركته لنا.

ن.س.: إنني أبحث أيضًا في موضوع الإرث، ومن الصعب جدًا تحديده، لأنّ تأثيرها كبير وبوسائل مختلفة، كونها فعلت الكثير. وبالطبع لا يمكنك مجرد النظر إلى تأثيرها في الكتابة الخيالية على سبيل المثال، أو الفن، بسبل منفصلة، لأنَّ أعمالها وأفكارها مرتبطة جدًا ببعضها أيضًا.

س.م.: إيه، ومثل الكثير من الأشياء، بعد مرور الوقت تبدأ في رؤيتها من منظور مختلف، أو عندما يتغير السياق يتغيّر معناها ونجد معنى جديدًا بسبب السياق الذي نعيد قراءتها فيه الآن. وأعتقد أنَّ أعمال إيتل هي هيك، عابرة للزمن لأنَّ فيها شيئًا من الروحانية والوجدانية. لهذا السبب كنت أخبرك بأنَّ في قراءة "في قلب قلب بلد آخر" اليوم، تستكشف شيئًا آخر، أو حتّى في رواية Sitt Marie Rose ("الست ماري روز") التي تدور أحداثها في السبعينيات. لكن ما أردت قوله، هو: عندما قرأت سيرتها الذاتية، تحكي عن فترة ما قبل الحرب الأهلية، حين عادت إلى بيروت من الولايات المتحدة ولفترة قصيرة كانت محرّرة الصفحة الثقافية في إحدى الصحف. وأنا أشعر بالفضول حيال تلك المرحلة أيضًا، وحيال إيتل المحرّرة. ماذا فعلت في تلك المساحة؟ لأنك تجدين مقتطفات هنا وهناك عن علاقاتها مع الكتاب/الكاتبات الآخرين/ات والمخرجين/ات والفنانين/ات، وعلاقتها بمعاصريها أيضًا. أعلم أنها كانت على علاقة -أعني أنهما عملتا معًا أيضًا- مع جوسلين صعب. أعلم أنها طلبت كتابات لجوسلين صعب عن الموسيقى من أجل الملحق الثقافي. كما تعلمين، جوسلين صعب هي إحدى الشخصيات الثقافية البارزة في لبنان، وقد كتبت إيتل نصّ أحد أفلام جوسلين وهو جزء من ثلاثية الحرب في بيروت. إذًا إيه أيضًا، أفكّر في هذه التعاونات، أفكّر في هذه العلاقات الشخصية والفكرية. أتمنى لو عرفنا المزيد عنها.

ن.س.: إيه. سارة أنتِ أكاديمية وباحثة في مجال النساء ودراسات الجندر، هل يمكنك التحدث عن رأيك في تأثير إيتل في هذا المجال؟

س.م.: بالنسبة إليّ، هي كاتبة مميزة ومثيرة للاهتمام لأنها لم تكتفِ بنوع أو بنمط كتابة واحد؛ فهي كتبت ونشرت رواياتٍ وشعرًا ونثرًا ذاتيًا ونقدًا فلسفيًا وسياسيًا ورسائلَ. وقد تطرقت إيتل إلى أوضاع النساء وحيواتهنَّ وصراعاتهنَّ في

العديد من هذه الكتابات. ليس هناك مكان واحد أو محدّد نجد فيه فكر إيتل النسوي. كما أنَّ لا يمكننا أن نحصر إرثها الفني والأدبي والنقدي في خانة واحدة أو في سياق معرفي أو جغرافي واحد – كفنّ أو فكر عربي أو أميركي أو فرنسي على سبيل المثال. هي استلهمت من الأماكن والسياقات السياسية والتاريخية التي عاشت وتنقلت فيها. والإرث الذي تتركه يسكن، مثلها، كلّ هذه الأمكنة، ويحاكيها. كمثال، تتناول الكاتبة والمفكرة النسوية الأميركية آدريان ريتش، في نص شهير لها عن The Politics of Location، رواية "الست ماري روز" كمادة أدبية تساعدها في صياغة مقاربة نقدية لانعزالية الفكر والتنظير النّسويَّين الأميركيَّين المُهيمنَين في الثمانينيات. وهذا مثال واحد فقط للدلالة على المعالجات والقراءات والمقاربات النسوية التي أتاحتها أعمال إيتل.

ومن اللافت أنَّ إيتل لم تستخدم التسميات أو الشعارات لتصنيف أعمالها، أو تحديدها، أو تأطيرها. ليس على إيتل، على سبيل المثال، أن تحدّد أنها كاتبة "نسوية" أو "كويرية" أو "يسارية" أو "بوست كولونيالية" (ما بعد الاستعمارية). أفكارها التحررية تنبثق من كتاباتها، لا ضرورة للتسميات. وأنا أقدّر ذلك كثيرًا في عملها. لأنَّ عندما تصبح للأشياء تسميات جاهزة ومعلبة، يسهل الادعاء والكسل الفكري. فتُستعمل التسميات عوضًا عن الوصف والشرح والتفسير. هي لا تقيّد نفسها بهذه الفئات. على سبيل المثال، عندما تقرئين Growing up to be a Woman Writer هي لا تستعمل كلمة "نسوية" أبدًا، لكن النص هو قصة وصول إلى وعي نسوي، هو قصة تحرّر فكري ومادي ليس فقط من القيود الاجتماعية والعائلية ولكن أيضًا من الثنائيات التي تفرض علينا. فهي تشكّك في أحادية الهوية -"صبي" أو "بنت"، "عربي" أو "أجنبي"، "مسلم" أو "مسيحي"، "سوريا" أو "لبنان"- من خلال تمعّنها في نفسها العابرة لكلّ هذه الحدود والثنائيات، لأنها تدور في الـ"ما-بين": ما بين اللغات والأماكن والأجناس. وكلّ ذلك من دون تقديم نفسها كـ"بطلة" أو "رائدة" نسوية.

وبالعودة إلى رواية "الست ماري روز"، هي أول رواية عن الحرب الأهلية في لبنان ومستوحاة من قصة حقيقية، كتبتها إيتل بالفرنسية في العام ١٩٧٧، وتحكي فيها قصة خطف ماري روز، واستجوابها، وتصفيتها، وهي معلمة مدرسة مسيحية، على يد ميليشيا يمينية مسيحية، لتضامنها مع الفلسطينيين في لبنان ونصرتها لقضيتهم. هنا أيضًا، تحدّت إيتل الحدود وكسّرت الثنائيات والسرديات العصبية. ولكن ما أريد التركيز عليه هو أنَّ المادة الأدبية التي قدمتها إيتل في "ماري روز" تؤرخ هذه الحقبة من وجهة نظر نسوية، كما أنها من الأوائل التي ظهّرت الجذور الجندرية -الذكورية والأبوية- للعنف

الذي يحكم منطقتنا وشعوبـها؛ فعـندمـا تقرئيـن الرواية اليوم تجدين فيها رؤية نظرية عن مفاهيم القوة والقمع والاستبداد والتضامن والهوية، استبقت فيها إيتل نظرية التقاطعية السائدة اليـوم.

أخيرًا، سيرة إيتل ومسيرتها الشخصية والمهنية تشكّلان بحدّ ذاتهما مادة للقراءة؛ فهي شخصية نسائية رائدة تمكنت من السفر في وقت لم يكن هذا شائعًا، والبحث عن حياة فكرية، لتصبح امرأة تمتهن الكلمة، فهي بذلك تعطي مثالًا مهمًا... عندما أدرّسُ الطّلّاب نصوصها في الجامعة الأميركية في بيروت يشكّل مسارها مصدر إلهام على المستوى الشخصي.

ن.س.: إيه. كانت شخصًا... أوكي، إيه. سافرت في البداية وفي وقت لاحق أيضًا، كانت تبحث دائمًا عن الأشياء في أماكن مختلفة. كانت دائمًا في حالة تنقّل وهذا شيء عنها مثير جدًا للاهتمام. إنها فريدة على الأقل في كيفيّة تنقُّلها وسفرها.

س.م.: وتنقّلت كذلك بين اللغات. وبالنسبة إليّ، إنّ تعرّفي إلى كتابات إيتل بالفرنسية والإنكليزية، في الولايات المتحدة، شكّل نقطة محورية، إذ كنت امرأة يافعة أتصارع مع عدّة أشياء لم أستطع فهمها، وأبحث عن إذن للكتابة عنها، وأبحث عن إذن للكتابة بلغة "أجنبية" عـن واقعنا المحلي. ممَّن؟ لا أعرف. وأعـتقد أنَّ اللقاء مع إيتل حدث في تلك اللحظة.

ومن المضحك أنّني حلمت بها بعد وفاتها، حلمًا عن السفر: كنا نقف وجهًا لوجه، وكأننا آلتان، لا بشر، نقود أجسادنا –أو تقودنا أجسادنا– بسرعة فائقة على أوتوستراد، أعتقد أنه الأوتوستراد الذي يمتد بين لبنان الشمالي وبيروت. شعرت كأننا نسافر عبر الزمن. ربما تكون علاقتـي مـع إيتـل واحـدة من أكثر العلاقـات النصـيّة الحميميّة التـي أشعر بهـا.

عن نادبين والأمومة والنقد النسوي

فاطمة فؤاد

فاطمة فؤاد

فاطمة فؤاد نسوية مادية وطالبة فلسفة وقارئة مهتمة بالتحليل النفسي، تطمح للتمرس في الكتابة والبحث والتوثيق، لتحاول عبرها أن تفهم وجعها، لعلّها تتخفف من ثقل وطأته.

مقدمة

مضت المهلة المحددة لإنجاز الورقة التي أتناول فيها تجربة الناشطة النسوية اللبنانية الراحلة نادين جوني، من دون أن أتمكّن خلالها من إتمام النص المطلوب. سلّمتُ مسوداتٍ ناقصةً ومشوّهة لا تصلح للنشر. استعنت في كتابتها بالبحث المكتبي وبعض القراءات الجانبية، واعتمدت بشكل أساسيّ على مقابلات التاريخ الشفوي التي أجريتها بين أواخر آذار وأيار ٢٠٢٢ ، مع نساء من حلقتها الاجتماعية القريبة.

صيف العام ٢٠١٥، لمحتُ نادين للمرة الأولى في ساحة رياض الصلح في بيروت، خلال إحدى التظاهرات المنددّة بأزمة النفايات. في السادس والعشرين من أيلول/سبتمبر ٢٠١٩، شاركَت كل منا في اعتصام "طالعات" الذي أتى في إثر مقتل إسراء غريّب، وقد نظّمته نسوة فلسطينيات تزامنًا مع تظاهرات ومسيرات مماثلة في فلسطين وبرلين، رفضًا للعنف المتزايد ضد النساء وتنديدًا به.[1] يومها حملَت نادين كرتونة كُتِب عَليها: "وين شرفك؟ أكيد مش عندي! شرفك ما بيمرق بين إجرينا"، مع رسمة باليد تُظهر النصف السفلي من جسد امرأة وشاربًا عريضًا يغطي فرجها. تبادلنا السلام العابر والابتسامات المتودِّدة، لتعود هي إلى انشغالها بالمشاركات/ين والصحافيات/يّين. كان ذلك قبل بضعة أيام من وقوع حادث السير الذي أودى بحياتها على أوتوستراد الدامور صبيحة السادس من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٩. بين اللقاءين، نشرت إعلانًا على صفحتي الشخصية على فايسبوك أطلب فيه مساعدة في إيجاد عمل، بادرت

---

[1] في آب ٢٠١٩، ماتت الشابة إسراء غريّب بعد أيام من خروجها من المستشفى في إثر إصابتها بكسر في عامودها الفقري ووجود آثار كدمات على جسدها، ولم تتم محاسبة المتهمين بضربها، وهم أفراد من عائلتها. العربية.نت، "هذه قصة إسراء غريب التي أشعلت غضب مواقع التواصل". ٣١ آب ٢٠١٩، آخر زيارة ٢٣ تشرين الأول ٢٠٢٢: https://www.alarabiya.net/last-page/٢٠١٩/٠٨/٣١/وفاة-شابة-فلسطينية-بظروف-غامضة-والأهل-يتذرعون-بـ-الجن
أمد، "النيابة ـ برام الله تكشف حقيقة وفاة اسراء غريب قتلاً على يد أهلها". ١٢ أيلول ٢٠١٩، آخر زيارة ٢٣ تشرين الأول ٢٠٢٢:
https://www.amad.ps/ar/post/٣١٣٤٨٤/النيابة-العامة-برام-الله-تكشف-حقيقة-وفاة-اسراء-غريب-قتلا-على-يد-أهلها

نادين إلى مراسلتي عارضةً عليّ المعونة في تحضير سيرتي الذاتية ورسائل التحفيز، لعلّني أقع على فرصة ما في منظمة غير حكومية. لا أذكر سبب عدم تجاوبي معها حينها، ولكنني أحيله اليوم إلى ما اصطُلِح على تسميته بـ"القلق الاجتماعي" لأتخفّف من ندمي.

تزامن بدء عملي على هذا البحث مع انتقالي إلى بيروت في محاولة جديدة لبناء استقراري وترتيب حياتي، كأنما كُتِبَ على بنات طبقتي وأبنائها الطواف الأزلي في "الصفر"، تلك الحلقة المفرغة من الامتيازات. أجريت أولى مقابلات التاريخ الشفوي مع سارة فرحات، وهي صديقة مقرّبة من نادين، درست العلاقات العامة في الجامعة اللبنانية الدولية، وتهوى التمثيل المسرحي، كما تستصعب التعريف عن نفسها كونها متعطّلة عن العمل منذ نحو العامين. تعرّفت إليها خلال الانتفاضة التي اندلعت في تشرين، بعد أيام من فاجعة الحادث الأليم، لاحقًا تطورت علاقتي بها في سهراتنا عند صديق مشترك، تواعدنا ذات مرّة على التلاقي في بيته بعد الإفطار لنتحدّث عن نادين، لم أسجّل كلامها، مع موافقتها طبعًا على تضمين ما أتذكره من المقابلة في النص. كانت تلك المرة الأولى التي تسرد فيها سارة محطات صداقتها بنادين وتستعيد ذكرياتها معها منذ رحيلها. حدادها معلّقٌ، وكأنها بالصمت تنكر الموت.

كذلك جاء كلام صديقة نادين صفا أبو دياب في المقابلة المسجّلة التي أجريناها على تطبيق "زووم" بسبب انتقالها حديثًا إلى دبي للعمل في مجال الإعلان، فيما تحتدم وتيرة الانهيار الذي يعيشه مجتمعنا على كل المستويات إلى أجل غير مسمّى، ومن دون أن نبلغ فيه قعرًا. خلال المقابلة أفصحت صفا عن أنها طيلة المرحلة الماضية مرّنت نفسها على ألا تفكّر بنادين، قبل أن تتداعى الذكريات على لسانها لحظتها.

في إحدى الزيارات المنزلية إلى بيت نادين، اصطحبت سارة معها رفيقتها صفا وهكذا تعرّفت إليها. درست صفا التسويق والعلاقات العامة مع سارة في الجامعة، وهي الأخرى تهتم بالمسرح الدرامي وتعشق الرقص الشرقي حسب تعبيرها. شخصيًا قابلت صفا أيضًا في "المرحلة التشرينية" لبيروت، خلال إذاعة بيان استقالة سعد الحريري ظهيرة اليوم الثاني عشر في رياض الصلح، جلست بجانبها نتظلّل بفيء شجرة ونستمع إلى ترّهات الرئيس المستقيل.

في المقابلة المسجّلة مع بادية فحص، الصحافية والكاتبة اللبنانية، التي تتناول في كتاباتها الشأن الإيراني وقضايا النساء، والتي انتقلت للعيش والعمل في الإمارات لدى ابنتها وأسرتها، حدّثتني عبر "زووم" عن تعارفها على نادين، وعن الثورة السورية والحراك والانتفاضة، كما حكت عن الأمومة والنسوية والفقد الوجيع.

أمّا نهاية القواسمي، الصحافية والناشطة الفلسطينية النسوية، التي تعيش حاليًا في تكساس وتثابر للنجاة من جحيم الولايات المتحدة حسب تشبيهها، فقصّت عليّ خلال مقابلتنا الافتراضية محطات من صداقتها مع نادين، وأخبرتني بجموح الأخيرة، وحزنها، وغضبها، وفكاهتها، وعفويتها.

قصدتُ ندى جوني، أخت نادين الكبرى، في بيت العائلة الكائن في الضاحية الجنوبية لبيروت، بهدف إجراء مقابلة التاريخ الشفوي. في بداية الحديث، أفصحت لي عن أنها ومنذ رحيل نادين ثم والدتها السيدة ماجدة بعد صراع مُضنٍ مع السرطان – وكانت قد تدهورت حالتها الصحية رغم العلاج الكيميائي نتيجة الصدمة وموت ابنتها – لم تتذكّر المرحلة السابقة على الحادث إلا لمامًا طيلة العامين ونيّف الماضيَين. ونادرًا ما استرجعت مَشاهدَ من طفولتها تجمعها بإخوتها، أو من شبابها مع نادين بوجود كرم، أوّل الأحفاد. لم تره إلا خمس مرات فقط منذ رحيل والدته، بعدما حرمتهم المحكمة الجعفرية وعائلة والده حقهم في الرؤيــة.

بعدما أنجزت ما استطعت من المقابلات، ماطلتُ طيلة المهلة من دون الشروع في الكتابة. منذ مدة وجيزة، شربت قهوة الصباح مع محللتي النفسية في جلسة افتراضية، شكوت لها "همّ الكتابة"، أجلس أمام حاسوبي وأتأمل بياض الصفحة، يرهبني الفراغ، أهرب منه كما هربت أمي ذات سبت قبل اثني عشر عامًا من البلاد من دون رجعة. سألتني المحللة عن نادين، أخبرتها ما استحضرت. في الدقائق الأخيرة، نطقتُ رغبتي في الموت، أو تراها موت الرغبة؟ لعلّها رغبتي في رغبة ما؟ لَمَحَتِ المحللة في موت نادين الفعليّ هروبًا رمزيًا، هروبًا من ضنك العيش والنضال اليومي، أتماهى معه في هروبي من الكتابة. في كتابها "كيف نلتئم: عن الأمومة وأشباحها"،

تقول إيمان مرسال: "كل مشروع كتابة هو مشروع قديم بالضرورة لأنه يعود إلى الشرخ الأول الذي نحمله في داخلنا". أسأل نفسي: أبالكتابة نكتب شرخنا ونخيط الفقد حدادًا؟ في موضع آخر، تورد إيمان فكرةً مفادها أنّه لا يمكننا فهم "أمومة" الأخريات/ين من دون أن نعود إلى مرجعيتنا، وأن نغوص في طفولتنا وذاكرتنا عن علاقاتنا بأمهاتنا. الأمومةُ كفكرة أو مفهوم، حميميّةٌ جدًا، ندركها بتجاربنا الذاتية المتعددة، لذلك يستحيل اختزالها إلى نموذج أحادي أو مجرّد، ومن كنّ منّا هنّ أنفسهنّ أمهات، فالتفكير في الأمومة يحتّم عليهنّ التأمّل باتجاه زمنَين، ماضٍ كنّ فيه بنات وحاضرٍ أصبحنَ فيه والدات.

ومنذ البدايات المتعثّرة للكتابة عن نادين، خطرت في بالي أسئلة لم أتمكن بعد من بلورة أجوبة شافية عنها: كيف نكتب عن نساء رحلنَ عنّا ولم نعرفهنَّ؟ كيف نتتبع أثرهنّ ونسرد حيواتهنّ من دون أن نختزلهنّ بشذرات ما حفظناه؟ كيف ننقل سيرهنّ عن ألسنة من عرفنهنّ، لنعيد تركيب ذاكرتنا الجماعية حولهنّ؟ كيف نتّقي شرّ الأيقنة فيما نتذكرهنّ، ونجاهد لئلا نسلبهنّ إنسانيتهنّ الخطاءة؟ كيف ننظر إليهنّ بعيون جاحظة، ونغضّ الطرف عن مرآة التماهي الحاجبة الغاوية؟ فهمت مؤخَّرًا أنَّ الإجابة تكمن في التجربة وحدها. أن نشهد على قصصهنَّ وأن نؤتمن على روايتها، لهُما حقًا أمانة ثقيلة ومهمة عسيرة.

في ما يأتي، أستعيد ملامحَ من طفولة نادين وتجربتها في الزواج والطلاق وحرمانها الحضانة، ومن ثم أنتقل إلى نشاطها النسوي بشكلَيه العفوي والمُمَأسس، وأحاول تقصّي طموحاتها حول الحراك النسوي في لبنان والمنطقة العربية، مستندةً إلى ما ورد في التاريخ الشفوي مع كل من النساء الآنف ذكرهنَّ، بالإضافة إلى نقاشات خضتها مع صديقات نسويات متعلّقة بالحراك النسوي في لبنان، لأختم بتأملات شخصية حول التاريخ الشفوي والتدوين والحداد.

في بداية حديثها عن نادين التي تصغرها بثلاثة أعوام، استعادت ندى خلال المقابلة يوم ولادة شقيقتها حسب ما نقلته لها أمها لاحقًا. في السابع عشر من أيلول /سبتمبر ١٩٩٠، خيّر الطبيبُ الأب، خليل جوني، بين حياة الأم أَمِ الجنين لصعوبة سير عملية الولادة. اختار الوالد زوجتَه، لتصرخ الأم: "رح نطلع أنا وبنتي طيبين".

سألتُها كيف كانتا تبدّدان الوقت وتتحايلان على الضجر في طفولتهما، هي ونادين. عدّدَت ألعاب تمثيل السيناريوهات والأدوار الاجتماعية المختلفة التي عرفها معظمنا في صغره ، إلا أنَّ "فإنسان، حيوان، شيء..." كانت المفضلة عندهما، تقول ندى فيما تسرح في ذكرياتها.

ترعرت نادين وسط عائلتها في الضاحية، بينما كان الجنوب يرزح تحت وطأة الاحتلال الصهيوني، مـن دون أن يتمكّن والـدها مـن زيـارة ضيعتـه بنـت جبيل لأنه مطلوب من جيش لحد، كما كتبت نادين مرّة في منشور على صفحتها الشخصية على فايسبوك.[٢]

ذكرت قصصًا من الوقوف على المعابر، والتفتيش، والتحقيق مع أمها لمعرفة معلومات عن أبيها وإخوتها المطلوبين من العملاء، وإرشادات الوالدة لها ولأخواتها حول كيفية الإجابة عن الأسئلة. في المدرسة، تميّزت نادين بتفوقها بين إخوتها، ندى الكبرى، ومنى وإبراهيم اللذين يصغرانها. كانت تحمل مدقّة الثوم وتتوسط غرفة الجلوس لتنقل إلى الحضور نشرة الأخبار المسائية، مقلّدةً مذيعات التلفاز، تروي ندى، وكانت تحمي إخوتها في أثناء اللعب مع الأطفال، مدافعة كما عهدناها في شبابها. عرفَتْ شغفَها باكرًا، وجدَتْ صوتَها وسكنَته.

---

[٢] نادين جوني. "بتذكر بهاليوم قديش فرحنا بالتحرير". فايسبوك، ٢٤ أيار ٢٠١٥، آخر زيارة ٢٥ تشرين الأول ٢٠٢٢:
https://www.facebook.com/nadynk.jouny/posts/pfbid0qi3YTbXE9zLQHskc7qjzzZnqP36G7daj4sXyaa7NuPPqDt1Yi1xQuX3dMwAVstEJl
يمكن زيارة الرابط لمن هم فقط ضمن لائحة أصدقاء نادين على فايسبوك، ويُشار إليه هنا رغم الخصوصية لأنه لا يتضمن أي معلومات شخصية.

لم تكن نادين قد أتمّت عقدها الثاني عندما قررت الزواج من شريكها العاطفي وزميلها على مقاعد الثانوية. تفاجأ ذووها بنيّتها المعقودة على الارتباط، رغم ذلك كابروا على صدمتهم وباركوا خيارها من دون اعتراض. شعرَت ندى بريبة وحزن عميق يلفحها، تحيله إلى حدس الأخت. تسترجع في سيل كلامها نصًا شاركته نادين على صفحتها الشخصية، تتناول فيه تلك المحطة بعد مضي عقد عليها وتبوح قائلةً: "بتذكر يوم عرسي بكيت وقلت لها لماما "راجعة"، وقتها هيي قالت لي تقوليش هيك، بس الإحساس ما بيخيب".[٣] في شهور قليلة، انقلب العسل إلى علقم في حياتها الزوجية، تقول ندى، فقد قاست التعنيف المعنوي والجسدي المبرحَ، حتى في فترة حملها. حُرِمَت أحيانًا من الذهاب إلى الجامعة وضغط عليها زوجها وعائلته لتغيّر مجال دراستها من الصحافة والإعلام إلى الحقوق، تقول ندى، وتضيف أنه منع عنها مصروفها الشخصي في محاولة للتضييق على حريتها بالحركة في الفضاء العام. في النص-البوح الذي كتبته نادين، تخبرنا بالكدمات على وجهها وجسدها والظاهرة للعيان، تخرج غير متردّدة إلى الجامعة لحضور صفوفها متى استطاعت، وتقول لتقوّي عضد كلّ امرأة معنفة قد تصادف المنشور: "ما تستحي من حالك، ما تستحي من حدا، اللي بيحاول يحرمك تعليمك هو اللي لازم يستحي، لازم تعرفي إنه حرمانك من التعليم هو للسيطرة على أي محاولة أو قدرة للاستقلالية والبدايات الجديدة والقوية".

عبّرت ندى بصراحة عن اقتناعها بأنّ الطلاق وقع بإصرار وتصميم من قبل زوج نادين السابق وعائلته، فقد كان يهددها دائمًا ملوّحًا بقدرته على سلبها الحضانة. ذات مرة عادت نادين أدراجها من الجامعة بعدما تمّ إلغاء الامتحان المقرر، ابتدع زوجها خلافًا مرتكزًا على شكوكه بنادين وسوء ظنه بها، تطوّر في هنيهات إلى ضرب عنيف استعمل في أثنائه أدوات حادة على رأسها. حاولت نادين الدفاع عن نفسها، إلا أنه دفعها خارجًا لتقع عن درج المبنى وتتدحرج، طاردًا إياها من الشقة بعدما حرص أقرباؤه على

---

[٣] نادين جوني. "بمتل هاليوم من عشر سنين، كان عرسي، كان يوم زواجي".
فايسبوك، ١٩ آب ٢٠١٩، آخر زيارة ٢٣ تشرين الأول ٢٠٢٢:
https://www.facebook.com/nadynk.jouny/posts/pfbid02Kt5ZfNWfEtn
BeYs85dQAaz13PD49ndKxgGpwotq7JYPx69rrFRnCMgkWRyXeuCol

توضيب أغراضها في صناديق ووضعها بالمتناول، وأخفوا طفلها لئلا تحاول الهرب به. لم يتعدَّ عمر كرم السنة وتسعة أشهر آنذاك. رجعت إلى بيت أهلها مسلوبة الأمومة، وحيدة من دون طفلها، الكدمات تغطي جسمها وفوق جبينها تسيل الدماء. أذكر الذعر في عينَيْ ندى فيما كانت تروي أحداث ذلك اليوم، وكأنها تراها أمامها تدخل البيت بمظهر من نجت من عراك قاتل.

في الشهرين اللّذَين تليا الطلاق، لم تتمكن نادين من رؤية وحيدها أو معرفة أخباره، تستذكر شقيقتها تلك المرحلة بمرارة الحزن والغضب. لازم الأرق لياليها الطويلة، ولم تعرف النوم إلا بالانهيارات العصبية التي تخور بها قواها، "بالبداية مرضِت، سخِنت..." تقول ندى في محاولة لاحتواء ثقل نوبات الهلع والقلق والاكتئاب بمفردات، أفهم أنها تقصد بـ"البداية" حدوث الشرخ في الروح أو الصدمة النفسية بتعبير آخر، وبـ"المرض" سُقمَ الفقد. كانت تستيقظ أحيانًا من غفوتها صارخةً: "بدي ابني! بدي ابني!"، تتخبّط في سريرها وتلطم على صدرها، تحاول أمها القلقة ماجدة التهدئة من روعها، فتحضنها وتبكيان معًا حتى يغلبهما النعاس كل ليلة.

كيف تتيقّن الأم أمومتها متى فقدت طفلها؟ كيف تختبر الأم الأمومة عندما تصبح أمومتها ذاتها موضع شكّ وسؤال؟ أسأل نفسي فأنتبه فيما أكتب أنَّ الحرق واللذع والأرق والوصب والحزن والكمد والشجن والاكتئاب والحنين واللهف وغيرها من الكلمات، كلها من أسماء الحب عند العرب ومعانيه. بكل هذا وأكثر، أجيب نفسي وأتذكر المدونة المعنونة: "أمومتي: سنوات من وقف التنفيذ"، نشرَتها نادين في يوم الأم ٢٠١٨، بعد أيام من عيد ميلاد كرم الثامن، تطرّقت فيها إلى روتين الفقد اليومي الذي اختبرته طيلة سنوات، من دون أن تتقبله واقعًا مفروضًا بالإكراه. كانت تراقب عقارب الساعة بهوس المشتاقة طيلة ستة أيام، وتسابق الوقت للقياه، لتستريح في اليوم السابع وتغفو إلى جانبه.

عندما زرتها لإجراء المقابلة، شاركتني ندى بعينين دامعتين ذكرى طبعَت وجدانها: في إحدى زياراته الأسبوعية أواخر آذار، دخل كرم غرفة الجلوس في بيت جدّيه، وطلب الخلوة مع والدته ليُخرِج من حذائه ورقة مطوية كتب فيها رسالةً لها بمناسبة عيد

الأم، خاف حينها أن تمزّقها جدّته لأبيه في حال وجدتها في جيبه أو حقيبته، فأخفاها تحت جرابه.

في التاريخ الشفوي مع صفا أبو دياب، تقول إنّها عرفت الفقد مبكرًا في حياتها، يوم خسرت صديقتها فرح المقتولة على يد المدبّرة المنزلية. كانت تبلغ من العمر تسع سنوات فقط عندما تعرّفت للمرّة الأولى إلى مفهوم الموت وهول الفراغ من بعده. حرصت أمّها على إخفاء الصور الفوتوغرافية التي جمعتهما، ربما جرّبت بذلك أن تسدّ ثقب الذاكرة. على أيّ حال، بقيت صفا تحلم بصديقتها من دون أن تلمح وجهها، إذ تلاشت تعابيره بمرور الزمن. أستمع إلى قصة صفا فأستعيد جملة من إيمان مرسال: "هناك موت أول في حياة كل منا، كما يقول دريدا، يكون علينا أن نتدرّب على الفقد بسببه، نستعيده في الذاكرة حتى لا يختفي، ننقذه من آخريته التي أصبحت عدمًا، ونتعلّم كيف نحفر له مكانًا خاصًا داخل ذاكرتنا المغلقة كي يظل بداخلنا".[٤] تبوح صفا بحزن وخوف ظاهرَين: "بتهرّب من التفكير بنادين". تشغل نفسها بأمور آنية. لا تريد أن تتذكرها، تقول بحزم وتبكي.

أفكّر في كيف اختبرت نادين الفقدان، وكيف تختبره الأمهات اللواتي يُحرمن من أولادهنَّ. في الخريف ومع موسم العودة إلى المدارس، كانت بادية فحص تهاتف نادين، أو العكس، لتربط الواحدة على قلب الثانية وتصبّرها على شعور الغربة بين سائر الأمهات المنهمكات في تحضير أطفالهنّ للمدرسة، تبكيان وتلعنان جور الأحكام معًا. أخبرتني بادية بأنَّ نادين لطالما رددت على مسمعها أنها تأبى تكرار ما عاشته الأولى طيلة سنوات الحرمان، "العمر عم يركض، مش كل يوم كرم بيكون صغير... ما بدي يصير فيني متلك، ما بدي إبني يكبر وما يعرفني... بدي ربّيه، بدي عيش أمومتي، بدي لفّ له السندويشة الصبح قبل ما يروح ع المدرسة، بدي ساعده بدروسه لما يرجع ع البيت..." قالت لها نادين في مرات عديدة، كما شاركت أمانيها في منشورات عديدة على صفحتها.

[٤] إيمان مرسال، "كيف نلتئم: عن الأمومة وأشباحها"، ٢٠١٧، دار مفردات.

بعد مرور شهرين، استطاعت نادين استرداد حقها في الرؤية لأربع وعشرين ساعة أسبوعيًا، رغم أنها لم ترضَ يومًا بهذا الحد المجحف كسقفٍ لأمومتها المستلبة؛ فهي لم تتنازل عن مطلبها بالحضانة الكاملة، وعلمت أنها تخوض معركة عن شريحة اجتماعية برمّتها بمواجهة شبكة علاقات اجتماعية-اقتصادية ورأسمال ديني-سياسي يعيد إنتاج ظروف القهر التي تكبّل الأمهات المطلّقات، وتلغي قراراتهنّ، وتكتم أصواتهنّ. حُدِّدَت زيارة كرم بأربع وعشرين ساعة بين يومَي الجمعة والسبت بعد شهور من الانقطاع التام. كانت نادين تحرص حينها على إخفاء سخطها وحزنها على فقدان ولدها "بدّي أعطيه الحب اللي انحرم منّه" كانت تقول لعائلتها؛ فتتدفّق فيها الحيوية وتنكبّ على التخطيط لمشاوير ونزهات ترفيهية مع ابنها، وتحرص دومًا على توثيق اللحظات، كأنما تنحت ذاكرته البصرية بعشرات الصور الفوتوغرافية على حساباتها. كانت تهتم بتجهيز الأطعمة والحلويات المفضلة لديه، "نفسها طيب في الطبخ" تقول ندى، وتشهد صديقاتها، ورثت الفنّ عن جدتها وأمها. ليل الجمعة، كانت تغفو إلى جانبه حاضنةً إياه كأنه رضيعًا كان ولم يزل، تبكي ندى وهي تحاول وصف هذا المشهد، تخذلها التشبيهات، فتختصر: "من لمّا فقدت ابنها أول مرة لليوم اللي ماتت فيه، نادين ما كانت تقدر تنام".

رغم قرار المحكمة الجعفرية بالسماح لها برؤية طفلها كلّ أسبوع، تقول ندى إنَّ طليق نادين لم ينقطع عن أذيتها نفسيًا، ودائمًا ما كان يهددها بسعيه إلى حرمانها الطفل، لا سيّما في ذروة نشاطها في الحملة، في محاولة منه لتقويض همّتها. وحسب ندى جاءت تصرفاته بإيعاز من جهات سياسية دينية لم يرقها توجُّه نادين السياسي عمومًا وتحريضها الدؤوب على سياسات المحكمة الجعفرية. وتحكي ندى أنَّ زوج نادين السابق قد حرّض حتّى إدارة المدرسة التي يرتادها كرم على عدم مشاركة أي معلومة معها عن أداء طفلها ووضعه الدراسي. بقيت الأمور على حالها حتى وفاتها، ولكن في الشهور الأخيرة كانت تخطّط وتحضّر لخطوة هجرتها النهائية برفقة كرم من لبنان، إلى إسطنبول أو أي مدينة أوروبية أو كندية أخرى. ذلك كان حلّها الأخير والجذريّ لوقف الأذى في حقها وحق طفلها، قالت بادية، وأضافت أنَّ نادين أدركت أنَّ معركتها الشخصية خاسرة لا محالة في هذا الواقع المادي للحركة النسوية

وسياسات المحكمة الجعفرية. شعرت بأنها لن تكسب معارك النساء جميعًا في حياتها، بل هو جهد تراكمي طويل. ولكنها كانت تعمل بجدّ لكسب معركتها الشخصية، واسترجاع حضانة طفلها بالقوة، بالخطف، بأن تفرض قرارها ورغبتها، ما من طريقة أخرى منصفة لتدفع عنها الظلم.

العمل النسوي

في كتابها "التعليم للتخطّي" (Teaching to Transgress)، تؤكّد بِل هوكس في مواضع مختلفة أنها وجدت في النظرية قدرة علاجية سمحت لها بالنجاة رغم هول الحياة، فهي تمرّست بالتنظير لأنها كانت تتألّم. أسأل نفسي: ألم تنغمس نادين في التنظيم لتسكّن ألمها هي الأخرى؟ بعد الطلاق، أخذت تشارك نصوصًا قصيرة عبر صفحتها الشخصية على فايسبوك، تتحدّث فيها عن كرم، وأحيانًا تتوجّه إليه معبّرةً عن شوقها المحفوف بقلق الفقد. كانت تشارك تجربتها أينما حلّت، فارضةً سرديتها كناجية. انخرطت نادين في العمل النسوي ولم يقتصر نشاطها على قضيتها الشخصية، بل اشتمل على قضايا عديدة ملحّة تمسّ حياة النساء اليومية، وجودهنّ وأمنهنّ، لبنانيات وفلسطينيات وسوريات وعاملات أجنبيات. كما نظّمت مع زميلاتها حملات لمجابهة العنف الأسري والزوجي وتزويج القاصرات والاعتداءات الجنسية. عملت لسنوات في مؤسسة "أبعاد" ولكنها لم ترَ في الأطر المُمَأسَسَة سقفًا للنشاط النسوي، ودأبت طيلة تجربتها في توظيف الموارد التي توفرها المؤسسة في دعم التنظيم والعمل الميداني المباشر.

خلال لقائي غير المسجّل مع رفيقة نادين، سارة فرحات، أواخر شهر آذار المنصرم، ذكرَت شيئًا عن الشجارات الودّية مع نادين خلال السهرات في بيتها. كانت تمرّ الساعات والأخيرة منشغلة بهاتفها، تتواصل مع أشخاص لا تعرفهنَّ/م بالضرورة، يقصدنها/ يقصدونها بمساعدة، أحدهم يحتاج إلى دواءٍ لذويه، أخرى تبحث عن منزل للإيجار وحالتها طارئة، امرأة تشكو لها عنف زوجها أو مطلّقة تفرّغ عذاباتها مع المحكمة الجعفرية وتطلب نصحها. وفي أثناء حديثي مع صفا، أخبرتني بتجربة تحرّش متكرّر تعرضت له في مكان العمل ضمن شركة، عملت فيها أسبوعًا واحدًا فقط، وتعرّضت

خلاله لأكثر من خمس عشرة محاولة تحرش من قبل زميل لها، في إمعان منه في ترهيبها والتضييق عليها. أقدمت صفا على فضحه من خلال الكتابة عنه على مواقع التواصل الاجتماعي من دون أن تكشف هويتها. ساندتها نادين عبر نشر شهادتها بالإضافة إلى شهادات أخريات في الإعلام المحلي من خلال الحملة المنظمة التي نسّقتها عبر "أبعاد" بحكم عملها كمنسقة للحملات الإعلامية في المنظمة.

استعادت ندى في روايتها قصةً وقعت أحداثها قبل بضعة أعوام، عندما تواصلت امرأة جنوبيّة معنَّفة في بيتها الأسريّ مع نادين، لتطلب منها المساعدة شخصيًا. تستذكر ندى شقيقتها المنهمكة، تقلّب السيناريوهات المحتملة في رأسها وتدرس الخطوات العملية. اتّفقت نادين مع الناجية على ملاقاتها في موقع قريب من بيتها في الضيعة، ذهبت بسيارتها الشخصية لتهرّبها إلى بيروت، استضافتها في منزل أسرتها بضع ساعات، كان أهل البيت في حالة من الارتباك والخوف والترقّب لأي رد فعل عدواني من عائلة الناجية. طمأنتهم نادين: "إنتو بأمان، والأهم إنه الصبية هلق صارت بأمان"، نقلتها نادين إلى دار إغاثي للنساء المهددات. بعد وفاتها، تواصلت المرأة مع ندى التي لم تتذكرها في البداية، كانت قد خلعت حجابها، فذكّرتها، "انبسطت بحكيها وانقهرت على إختي" تقولها ندى باكيةً.

تفتقد بادية فحص كذلك نسوية نادين. بعد عام على رحيلها، رثت بادية صديقتها في مقال منشور على موقع "درج"، كتبت فيه: "قبل سنوات، مشيت خلفك، في أول مظاهرة، قلتِ لي يومها، إنَّ الحاسة التي يجب أن تكتسبها الأمهات في عصرنا، هي الصوت".[٥] وجدت بادية في نادين الصورةَ التي تحب أن تكون هي نفسها عليها، وكأنها مرآة عكست انكسارها وانسحاقها كما سائر أترابها من نساء جيلها اللواتي ارتضينَ قهرهنّ، مقتنعات بالتنشئة الاجتماعية، خائفات من المواجهة، إذ لم يكن للنسوة صوت مجاهر ومطالب في البيئة التي ترعرت وعاشت فيها، تقولها بصراحة: "لأننا جُبَنا"، وترى في السكوت المُلَقَّن للفتيات منذ نعومة أظافرهنّ على أنه "حياء"، عنفًا أبويًا قمعيًا محضًا.

---

[٥] بادية فحص، "نخبك يا نادين... هل وجدتِ أنَّ الله لا يفرّق بين رجل وامرأة". درج، ١٥ تشرين الثاني ٢٠٢٠، آخر زيارة ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٢: https://daraj.com/57444/

عنصر الصوت يحضر بقوة كلما تذكرنا نادين وإرثها النسوي. لكن يلفتني أيضًا أنَّ نادين في حياتها الاجتماعية وبإصغائها لهموم صديقاتها ومعارفها، وظفت الاستماع كـ"أداة نسوية" كذلك. أتأمل المنهجية التي استعملتها في البحث عن حياة نادين، أي في التاريخ الشفوي، كوسيلة نقاوم من خلالها تاريخًا من الإسكات والتهميش والإقصاء، فأكتشف قلب هذه المنهجية في علاقات نادين أيضًا، من خلال حثّها المستمر للنساء من حولها على الكلام والتعبير والبوح، كوسيلة للرفض والتمرد وتغيير الواقع. في هذا السياق، تقول صفا أبو دياب إنَّ صداقتها بنادين ساعدتها في "إعادة اكتشاف نفسها"؛ تطورت علاقتهما في بضع سنوات فقط قبل رحيلها، "ليرسمها شعور الأمان".

أجمعت أختها وصديقاتها من حيث لا يعلمن على تشبيهها بالنار في إشارة إلى قوة شخصيتها ونشاطها. حتى إنَّ كُلًّا من بادية ونهاية لجأت إلى ذاكرتها الحربية لتستحضر التشابيه. بادية عدّتها مثل "كاسحة الألغام التي تتقدم الجنود المشاة عند اقتحامهم مواقع العدو". أمَّا صديقة نادين، نهاية قواسمي، فقالت: "هي متل شعلة النار يلي ما بتسكت، ما فيكِ تطفيها لا بميّ ولا بتراب. بدّيش استخدم هالتشبيه، بس بتذكرني فيه. بتعرفي الفسفور الأبيض يلي كانوا يرموه على أهل غزة خلال الحرب؟ الفسفور الأبيض ما فيكِ تطفيه، بيضل يحترق، ما بدي أشبهها فيه (تؤكد مرّة جديدة)، بس نادين كانت متل النار، بتضل تكبر وتكبر وتحرق كل شي ذكوري..." طبعًا يمكن إحالة التشبيهات العسكرية الباهرة إلى ما قاسته كلتا المرأتين من المعيش اليومي تحت وطأة الاحتلال الصهيوني في النبطية والقدس والمعارك بين الأطراف اللبنانية والفلسطينية المتحاربة بين ١٩٧٥ و١٩٩٠. أكتب هذه الكلمات بعد ساعات من وقف عدوان آب ٢٠٢٢ الإسرائيلي على غزة والذي استمرّ عدّة أيام ارتكبت فيها آلة القتل الصهيونية مجازر مروّعة في حقّ أهل القطاع المحاصر، عبر استهداف أبراج سكنية ومبانٍ مكتظّة في مخيم رفح، فَقُتِلَ العشرات بينهم أطفال، وأُصيب المئات. لو دخلت لعبة تشبيه نادين بصورة من المخيال الحربي لامرأة عشرينية، لشبّهتها بخيوط النار التي ترسمها صواريخ المقاومة في سماء غزّة، على سبيل المثال.

يـوم الأحـد ٣١ حزيران ٢٠٢٢، نظمـت مجموعة من الناشطات/ين والمجموعات النسوية والكويرية والعمّالية في بيروت مسيرة النسوية بعنوان "نرفض، نتضامن، نتحرّك". أتى التحرّك تنديدًا بجرائم قتل النساء في لبنان والمنطقة العربية، المتزايدة وتيرتها منذ فرض الحجر قبل عامين وتفاقم الأوضاع المعيشية والاقتصادية والسياسية، ورفضًا للقرارات الرسمية التمييزية فـي حـقّ المثليـات/يّيـن والعابرات/ين.[٦] خلال المسيرة سمعتُ مجموعة من النساء تردّد هتاف نادين الشهير "الفساد الفساد جوا جوا العمامات". رددتُه معهنّ بحماسة وتذكرت كلام بادية عندما سألتها عن رأيها بـ"الحملة الوطنية لرفع سنّ الحضانة عند الطائفة الشيعية" التي نشطت فيها نادين مع صديقاتها، قالت: "نحن (نساء جيلها في المجتمع الشيعي) ما كنا منحلم إنه مجموعة من النساء توقف بوج المجلس الشيعي الأعلى وتصرخ هيدا الهتاف". بالنسبة إليها، شكّلت نادين حلقة وصل بين النساء اللواتي عملت بينهنّ، مدركةً وواعيةً تمايز التجارب والسياقات الفردية عن بعضها، وكأنها وحّدت أصوات كثيراتٍ من النساء بصوتها ونشاطها.

تـشـدّد باديـة علـى أهميـة التضامـن لا الدعـم الشكلـي، وبـرأيهـا تحـتمـل المـفـردة الثانيـة بعـدًا طبقـيًا، بمعـنـى أنها تتخيل "الدعم" مُنزَلًا من نسوية مقتدرة تقبع فوقه إلى امرأة مقموعة ترزح تحته، فيما تتخيل التضامن كشبكة اجتماعية متعاضدة أفقية. تذكّرني ديمة قائدبيه، عندما كنا نتناقش بهذه الجزئية في إحدى جلسات الكتابة المشتركة بينما كنت أعمل على هذا النص، بأحد شعارات الحركة النسوية التقاطعيـة والكـويـريـة: "كل قضيـة أولـويـة والتضامـن هو الحـل"، لمحتـه مخطوطًا خلال المسيـرة.

[٦] أتت هـذه المسيـرة بعـد قـرار وزيـر الداخليـة بمنـع تجمُّـع أفـراد مجتمـع الميـم-عيـن، ومشروع حكـومـة نجيب ميقـاتـي لتصـريـف الأعـمال بإعـادة ١٥ ألـف لاجـئ/ة سـوريّ/ة إلى "المـنـاطـق الآمنـة" بالـتنسيـق مـع الحكومـة الـسـوريـة، والتـي مهّـدت الأرضيـة الخصبـة لمـزيـد مـن الممـارسات العـنصريـة اليوميـة تجـاه اللاجئيـن/ات، وصلـت حـد الطـرد، والتـرهيـب، والتعذيـب الجسدي، والقتـل.

كلمة أخيرة

طيلة الشهور الماضية التي عملت خلالها على كتابة الورقة أعلاه، خضتُ حديثًا ذاتيًا مطوَّلًا مع نادين، حتى إنَّ لساني زلَّ في مرات عديدة فقلت لمحلّلتي النفسيّة إنني فيما كنت أتحدّث "مع" نادين، لا "عنها"، سألت نفسي في البداية كيف أكتب عن تجربة الأمومة وأنا لم أعرف منها سوى الإجهاض؟ كيف أكتب عن فقد الأم لطفلها وكنتُ ابنة خمسة عشر عامًا يوم لمحت أمي للمرة الأخيرة قبل أن تهجرنا من دون رجعة؟ كيف أكتب عن صوت نادين قبل أن أجد صوتي وأسكنه؟

ولأنَّ الأمومة لا تدرك إلا عبر التفكّر في تجربتنا وذاكرتنا الشخصية، غصت عبر العلاج النفسي في علاقتي بأمي مجدَّدًا، بعدما هربت من هذا الموضوع تحديدًا لفترة مديدة، فحاولت أن أوازن بين مشاعري الساخطة المشروعة وتحليلي المادي النسوي للواقع، لما حدث وما كان. كما رأيت أنه من البدهيّ أن أخوض أصعب المواجَهات الاجتماعية قبل أن أكتب معركتها، وذلك بأن أشارك تجربة اعتداء جنسي تعرضت له في مكان عملي سابقًا ليلة رأس سنة ٢٠٢٠، وأفضح الجناة والمتسترين. كتبتُ شهادة طويلة لتكون مسوّدة لكل ناجية قد تقع عليها، لعلّها تستلهم منها كما استلهمتُ أنا من شهادة صديقتي والزميلة السابقة في ورشة المعارف زينب ديراني حول متحرّش متسلسل. فكّرت في نادين وتوصيتها التي أوردتها بادية في مقالها المذكور سابقًا، الصوت العالي كالأذن المُصغِية بالنسبة إلى المرأة، هما أداتان فعّالتان في مجابهة الأبوية والذكورية.

لم تجمعني أي علاقة وطيدة بأي من النساء اللواتي قابلتهنّ، ما سمح ربما بأن يستطردن في أحاديثهنَّ عن نادين لغريبة أمامهنّ. انتبهت لوظيفة الحداد الكامنة في التاريخ الشفوي، فقد استذكرت كلٌّ من سارة وصفا مواقفَ وأحداثًا قد غابت عن بالهما لكثرة ما حاولت كلتاهما نكران موتها.

أذكر كلام سارة تحديدًا عن أنَّ أحدًا لم يكن يجرؤ على فتح سيرة نادين في الجلسات الرفاقية، لا سيّما أنّهم/هنَّ انشغلوا/نَ بالاهتمام بصديقهم/هنَّ علي الذي كان

برفقتها في السيارة عندما وقع الحادث، والذي بقي في المستشفى لأسابيع. هم/هُنَّ كانوا/كُنَّ بحاجة أيضًا إلى خوض أحاديث استذكارية عنها، والانتحاب معًا على صديقتهم/هنَّ. حتى ندى، قالت في ختام الجزء الأول من مقابلة التاريخ الشفوي التي أجريناها على مرحلتين، إنّها للمرّة الأولى تستعيد ذكريات من طفولتها ومراهقتها وشبابها، عاشتها مع نادين، وقبل أن نبدأ بتسجيل الجزء الثاني في اليوم التالي، أخبرتني بأنها أمضت ليلتها تسترجع ذكريات ظنّت أنها نسيتها للأبد، وبدت أكثر راحة وطلاقة في حديثها.

ضمن جلسة نقاش مع فيلسوف وناقد فني سوريَّيْن في أمسية صيفية بيروتية، تناولت الأعمال الفنية التشكيلية بعد الثورة السورية، سأل الفيلسوف، متوجّهًا إلى نفسه قبل الحضور: كم من حداد يلزمنا لنحدّ على جميع مَن فقدناهم في السنوات الأخيرة؟ وهو الذي لم يستطع ذرف الدمع منذ هُجِّر من الشام، تاركًا خلفه جثث كلّ مَن أحبهم وعرفهم. فكرت في دور التاريخ الشفوي النسوي في بناء الذاكرة الشعبية العضوية، خطرت بباي نادين وكلّ النساء اللواتي فقدناهنّ في سياقات مختلفة، فأجبته: لعلّ ما يلزمنا هو حداد واحد أشمل، نخوضه جماعيًا لنبكي فيه كلّ الفقد الذي ألمّ بنا. نخوض الحداد بأن نكشف روحنا المنكسرة وهشاشتنا، وأن نواجه مشاعرنا الخانقة، أن نختبرها لا أن نتجنبها. لا أظنّ أنَّ الفقد يداوى بالنكران، ولا الحداد يكون بغير التّذكر والتأمل.

نادين التي نتذكّرها

صفـــاء ط.

صفاء ط.

صفاء ط. محررة في مشروع ويكي الجندر. من فريق تحرير هذا الكتاب كما كتابَي "تسعينيات نسوية" و"ما تبقّى: تصورات نسوية بيئية" الصادرَين عن ورشة المعارف. مهتمة بإنتاج المعرفة النسوية والكويرية باللغة العربية، وبإتاحتها.

كيف نكتب عن نساء رحلنَ عنّا ولم نعرفهنَّ؟ كيف نتّقي شر الأيقنة فيما نتذكرهنَّ، ونجاهد لئلا نسلبهنَّ إنسانيتهنّ الخطاءة؟ كيف ننظر إليهنَّ بعيون جاحظة، ونغضّ الطرف عن مرآة التماهي الحاجبة الغاوية؟ فهمت مؤخرًا أنَّ الإجابة تكمن في التجربة وحدها. أن نشهد على قصصهنَّ وأن نؤتمن على روايتها، ليُما حقًّا أمانة ثقيلة ومهمة عسيرة.

كتبت فاطمة فؤاد هذه المقدمة ولم تكن المهمة يسيرة فعلًا؛ فنحن نكتب عن الناشطة النسوية الراحلة نادين جوني، والنساء اللواتي عرفنها. كانت نادين مناضلة شابة، عاشت بيننا، وكان موتها في ٢٠١٩ صادمًا وقاسيًا لنا، ولرفيقاتنا اللواتي عرفنها أو عملن معها.

لم نعرفها -كفريق ورشة المعارف- بشكل شخصي وحميمي ولكنّنا عرفناها في الاعتصامات والتّظاهُرات. تحدثنا إليها بأحاديث عابرة في الساحات أو عبر وسائل التواصل، ولكننا حفظنا صوتها الذي يعلو بالهتاف خلال التظاهرات، وانحفرت في عقولنا صورتها واليافطات التي حملتها. وأتى موتها ليرسّخ صورتها في أذهاننا.

في هذا النص إعادة إحياء وتحية حب لنادين جوني التي عُرفت بنضالها طوال سنوات لاسترجاع حقها في حضانة ابنها، كما أبناء كثيرات من الأمهات وبناتهنَّ، من المحكمة الجعفرية. خلال العقد الماضي، شاركت نادين في تنظيم حملات وتحركات احتجاجية حول قضايا نسوية واجتماعية واقتصادية-سياسية، قبل أن تفارقنا صباح السادس من تشرين الأول عام ٢٠١٩، في حادث سير على طريق الجنوب-بيروت.

كان ذلك قبل أيام من اندلاع سلسلة من الحرائق في جبال الشوف بقيت مشتعلة لعدة أيام، وقبل الانتفاضات الشعبية في العراق ولبنان وتشيلي، وقبل الأزمة المالية-المصرفية-الاقتصادية في لبنان. ماتت أيضًا قبل السقوط الحر للمجتمع، في انهيار لم نعرف له قعرًا حتى اللحظة، قبل وبأ الكورونا والحجر الصحي، وقبل انفجار مرفأ العاصمة وأحيائها.

كانت عملية البحث والكتابة صعبة جدًا. باحت لنا فاطمة، وهي الباحثة التي أخذت على

عاتقها أن تكتب عن إرث نادين النسوي، بأنها تخبَّطت في كثيرٍ من المشاعر الدفينة التي كانت تتجاهلها لسنوات. قابلت فاطمة رفيقات وزميلات وأفرادًا من عائلة نادين، ولكنَّ الكتابة والبوح بمواضيع مثل الأمومة والعنف والرحيل كانا أصعب ممَّا كنّا نتوقع، هي ونحن. فحملنا هذا العمل مع بعضنا، فريق التحرير وفاطمة لفترة. استطاعت فاطمة لاحقًا أن تعود للكتابة، ليكون النص الآخر الذي تقرؤونه/أنه في هذا الكتاب حول نادين. أمَّا هذا الفصل، فهو ما تشكّل بينما كانت فاطمة تتعثّر في عملية الكتابة، لذلك هو نفسه رحلة تحمل أصواتنا وتفاعلاتنا وتعكسها بلغتها وتصميمها، وتتجزّأ إلى عناوين فرعية بعضها متشابه مع نص فاطمة، إذ كنا قد اتفقنا عليها معها.

في أثناء اجتماعاتنا كفريق تحرير، وبينما كنّا نحاول أن نبحث عن وسائل لمساندة فاطمة في الكتابة من خلال العمل الجماعي، قالت تالة: "هذه أيضًا طريقة يمكننا أن نعبّر بها عن ذاكرة فردية كما جماعية وعن تجارب متداخلة في حملنا لهذا الإرث النسوي، ولكن نعبّر أيضًا عن تقديرنا لصوت كل منا وروحيّتها واستقلاليّتها. نطوّر نصًا يحمل تراكمات لذكريات كل منا عن نادين وموتها، وتفاعلاتنا المتنوعة مع مضمون المقابلات التي أجرتها فاطمة، ويعكس تجربتنا مع إنتاج هذا النص ونقاشات فريق التحرير".[1] فلكل منا خلفية شخصية وجماعية في رؤيتها للموضوعات التي نطرحها هنا، من الموت والحداد إلى التنظيم النسوي والأمومة. هذا بالإضافة إلى خصوصية التاريخ الشفوي كأداة تحمل دائمًا وجوهًا من الخاص والعام في آن.

حداد مؤجل

نادين التي نتذكرها ماتت قبل أن "يحدث كل ما حدث". ولأنها رحلت في تلك اللحظة، نحاول مع صديقاتها وأفراد عائلتها توثيق لحظات من حياتها ومن ذكرياتهنَّ/هم معها. أجرت فاطمة خلال شهرَي نيسان وأيار ٢٠٢٢ مقابلات تاريخ شفوي بالإضافة إلى لقاءات غير مسجلة مع صديقات نادين وزميلاتها: قابلَت أختها ندى، وصديقاتها وزميلاتها سارة، وصفا،

[1] تالة حسن، من فريق التحرير

ونهاية، وبادية. نستطيع من خلال المقابلات التي أجرتها فاطمة استكشاف علاقاتهنَّ بنادين. كما تضع أمامنا المقابلات أجزاء من مشهد الحركة النسوية في لبنان خلال حياتها، لنتأمل من خلالها دورهنَّ ودور نادين في هذه الحركة.

تأخذني المقابلات بين الذكريات التي يحاولن استرجاعها والاحتفاظ بها عن نادين وبين التخيلات لمستقبل لم يستطعن عيشه معها. كان واضحًا في جميع المقابلات أنَّ حداد العائلة والرفيقات لم ينته بعد؛ هو حدادٌ مؤجَّلٌ ليس فقط على ما فقدنه فيها بل أيضًا على أحلام صغيرة لم يتسنَّ لها ولهنَّ تحقيقها معًا.

كيف نختبر الحداد؟ من الصعب في سياق هذا البحث الخوض في طقوس الموت والحداد الموجودة في مجتمعاتنا، ولكن حتى في هذه الترتيبات الاجتماعية، تبقى الأدوار مقسّمة جندريًا، حيث تُقصي النساء من المشاركة والحضور أو تضعهنَّ في الخلف في أثناء الدفن، بينما تُقصي الرجال، كالعادة، من المراحل التي تتضمن تعبيرًا عاطفيًا واضحًا. من هنا، يعيش الأفراد الفقد من دون أن يشهدوا/نَ على كل مراحله. هل يكون الحزن أكبر في هذه الحالة؟ ربما نحمله معنا لفترة أطول لأننا لا نشهد كل مراحله. نحتاج كبشر إلى "أدلة مادية" للتعامل مع الخسارات، نحتاج إلى أن "نلمسها" كي نتمكن من تقبُّلها.

فكيف نعيش الحداد عندما يكون الموت مفاجئًا وحادًا؟

الحداد هو الاعتراف بالخسارة الجماعية والفردية، وهو مساحة نخلقها للحزن ليشعر الأفراد بالدعم المجتمعي. أكتب هذا السطر وأنا متيقنة بالإقصاء الذي يعيشه كثيرون/ات من الأفراد غير النمطيّين/ات من الحداد، ومن شرعية التعبير عن الفقدان. وبينما نحاول استرجاع أجزاء من ذاكرتنا الجماعية وتوثيقها، ندرك أيضًا حاجتنا كنسويات إلى التدرّب على الحداد الجماعي. في تاريخنا النسوي كثيرٌ من الفقد والخسارات المتلاحقة. كيف نبني على ما خسرناه، وعلى إرث ما تركته لنا الراحلات؟ ربما نحمله معًا حزنًا مشتركًا وندعم بعضنا في الحضور والغياب، وفي المساحة والحدود. أترك تأملات الحداد لجزء أخير من هذا النص وأتساءل: كيف عاشت نادين هذه الحياة؟

لا نعرف الكثير عمّا أرادته نادين، ولكننا متأكدات من أنها أرادت أن تعيش الحياة اليومية مع كرم ابنها. أرادت التفاصيل البسيطة التي تعيشها أم مع أولادها.

التصق اسم نادين بالأمومة وبالنضال النسوي، وبالموت المبكر والمفجع. نغوص هنا في هذه الجوانب من قصة نادين، حسب ما تتذكره النساء اللواتي قابلتهنَّ فاطمة. قد تبدو قصتها ونضالها مزيجًا غنيًّا من تناقضات هي في جوهرها ليست تناقضات، وتطرح حياتها التي نتذكرها مع أحبّائها، أو تعيد طرح أسئلة حول العمل والنضال النسويّين، وحول عفوية الشارع ومأسسة القضايا، وحول ارتباط القضايا النسوية ببعضها، من دون التفريق بين القضايا "الخاصة"و"العامة" .

وعند إعادة تذكُّر نادين، والاستماع إلى رفيقاتها، يعود تلازُم صفة الأمومة بقصتها، في زواجها وطلاقها وحرمانها من ولدها، وأيضًا من خلال إرثها النسوي، وهو كرمها في إعطاء الدعم والصوت لرفيقاتها.

حسب قانون المحكمة الجعفرية اللبنانية، والّذي ينظّم الأحوال الشخصية للطائفة الشيعية، فإنَّ سنَّ الحضانة هو سنتان للبنين وسبع سنوات للبنات، تستطيع فيها الأم الاحتفاظ بأولادها قبل أن يعودوا إلى الوالد.[٢] وهذه هي المأساة التي عاشتها نادين، كما تعيشها المئات من الأمهات في لبنان.

استرجعت فاطمة معنا شهادات ومسودات قديمة كانت قد كتبتها نادين، ومقتطفات من حياتها شاركتها أختها ورفيقاتها:

بعد عامين على ولادة كرم، هربت نادين من العنف المستمر ضدّها في بيتها الزوجي عائدة إلى أهلها، بعد تنازلها عن كامل حقوقها إلا كرامتها. سلبت المحكمة الشرعية الجعفرية نادين حقها في ممارسة أمومتها. منعتها من رؤية طفلها طيلة شهرين،

---

[٢] ولا حضانة للأم التي هي على غير دين الأب. تتصل مرجعية المحاكم الجعفرية في لبنان بمرجعية النجف في العراق، أي مرجعية السيد علي السيستاني الذي يفتي بانتقال حق الحضانة من الأم إلى الأب بعد بلوغ الطفل الذكر السنتين والأنثى السبع سنوات . ولكن المذهب الشيعي من المذاهب التي أبقت باب الاجتهاد مفتوحًا، لذلك يمكن للقضاة الرجوع إلى تفسيرات واجتهادات مختلفة. للاطلاع أكثر:

سامر غمرون ومارك غزاله، كيف يُطبَّق القانون الشيعي في محاكم الأحوال الشخصية اليوم وما هي شروط تعديله؟، المفكرة القانونية، ٢٨ تموز ٢٠٢١، آخر زيارة ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٢

https://legal-agenda.com/كيف-يُطبَّق-القانون-الشيعي-في-محاكم-ال/

جودي الأسمر، مسألة الحضانة في لبنان: أبويّة تستمكن بـ"جنايات" القوانين الطّائفية، السفير العربي، ٢٣ حزيران ٢٠٢٢، آخر زيارة ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٢

https://assafirarabi.com/ar/45853/2022/06/23/مسألة-الحضانة-في-لبنان-أبويّة-تستمكن-ب/

إقبال زين، الأحوال الشخصية في المحكمة الجعفرية: مصلحة الطفل أولاً، الأخبار، ١٩ شباط ٢٠٢٢، آخر زيارة ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٢

https://al-akhbar.com/Lebanon/330812#:~:text=تعتمد المحاكم الجعفرية الرأي الذي أكثر مما تظهره الوسائل الإعلامية

لم تعرف خلالهما أي معلومة عنه أو عن أحواله، فقدها كفقد الكثيرات من الأمهات الشيعيات المحرومات. وهنا بدأت رحلة نادين في درب الآلام، ونضالها لاسترداد أمومتها المستلبة وحقّها في الحضانة.

تمكنت نادين من استرداد حقها في الرؤية لأربع وعشرين ساعة أسبوعيًّا في المحكمة الجعفرية، إلا أنّ الوقت المتقطّع فالذي سُمح لها فيه برؤية ابنها لم يُرضِها. لم تتنازل عن مطلبها بحضانة كاملة، رغم ذلك حرصت على منح حبها مكثّفًا في كل زيارة.

تسترجع ندى، أخت نادين الكبرى، في مقابلتها تفاصيل أيام الجمعة التي قضتها نادين مع ولدها. كذلك تفعل نهاية قواسمي، الصحافية الفلسطينية وصديقة نادين التي أجرت فاطمة معها مقابلة تاريخ شفوي. أستمع إلى المقابلة مع نهاية التي امتدت لثلاث ساعات مع فنجان قهوة في صباح يوم مشمس في بيروت، وأفهم من حديث نهاية وفاطمة خلالها أنَّ الساعة، حين أجرتاها، كانت تقارب منتصف الليل بتوقيت بيروت -حين تتوقّع فاطمة انقطاع الكهرباء وبالتالي المكالمة- ما يعني أنّها أُجريت بعد الظهر بتوقيت تكساس حيث توجد نهاية.

عندما تسأل فاطمة نهاية أن تحدثها عن نفسها، تتكلّم الأخيرة مباشرة على فلسطين، عن والديها اللَّذَين لجآ في الداخل وقصة لجوئهما، وعن عملها كصحافية لتغطية الأحداث في فلسطين منذ التسعينيات وتداخُل هذه التجربة مع تجربتها كامرأة فلسطينية تحاول استكشاف فلسطين ومدنها بحب يبدو واضحًا في كلماتها. ومع أنَّ نهاية تعيش الآن في تكساس ومعها الجنسية الأمريكية، يظهر واضحًا كم يعني لها تحرير فلسطين، لكنها تقول إنَّها لا تعرف إن كانت ستتمكن من العيش فيها بعد تحريرها. خلال حديثهما، تخبرها فاطمة بأنها تجري المقابلة من منزل صديقاتها في بيروت؛ هي أيضًا لا تجد لنفسها مكانًا ثابتًا منذ تركت مدينة طرابلس ولم تتركها. تجيبها نهاية بأننا نحن النساء دائمًا مشردات، لا وطن لنا ولا مكان ننتمي إليه لا في بلادنا ولا في البلاد الأخرى التي نهرب إليها بحثًا عن الأمان، ولكننا نواصل المحاولة.
تسرد نهاية لفاطمة كم كان يعني لها كأم أن ترافق ابنتها كل سنة إلى المدرسة في اليوم الأول من العام الدراسي وأن تطمئنها، وكيف كانت نادين تفتقد ذلك الشعور

مع كرم. كثيرٌ من اليوميات والأحداث "الطبيعية" لا يحدث ببساطة مع نادين وأمهات مثلها، لكن نادين تحاول أن تملأ يومها الأسبوعي الوحيد مع كرم بكل ما كانت تود القيام به طوال الأسبوع، تؤجل كل المشاريع الصغيرة: أكل البوظة، شراء لعبة، وحتى عيد ميلاده عليها أن تنتظر يوم اللقاء المحدد لتحتفل به معه.

حين جاءت نهاية إلى لبنان في زيارة لعشرة أيام في نيسان ٢٠١٥، كانت نادين صديقة افتراضية. كانت نهاية تعيش حينها في كاليفورنيا، في الولايات المتحدة، ولكنها تعرفت إلى نسويات لبنانيات منهنَّ نادين من خلال صفحة "انتفاضة المرأة في العالم العربي". في منشور على فايسبوك دعت نهاية الأصدقاء لملاقاتها في بيت إحداهنَّ حيث ستطبخ المقلوبة على الطريقة الفلسطينية. سألتها نادين إن كان بإمكانها الانضمام، وكان هذا لقاءهما الأول الذي توثّقت الصداقة بعده. استمرت علاقة المرأتين من بعد، بين بيروت والقدس وكاليفورنيا. حلمتا معًا باللقاء يومًا ما في بلاد أخرى — في أوروبا ربما. تحدثتا عن يوم تلتقيان فيه وكرم معهما وتأخذانه في "مشوار"، لنأكل "غزل البنات متل ما إنتو بتسموه في لبنان، نحن بفلسطين منسميه شعر البنات". تسترسل نهاية في تذكُّر التخيلات وفي أمنياتها بأن تلتقي نادين في فلسطين بعد تحريرها وأن تدور معها في البلاد، بس "لا الاحتلال راح ولا نادين عاشت". تستوقفنا هذه العبارة مرارًا لما تحمله من خسارات مستمرة.

أرادت نادين لكرم ولنفسها حياة يومية عادية ولكنها كما تقول ندى نقلًا عنها: "دفعت ابني ثمن للعنف الزوجي". نجت بالهرب ولكن ذلك جعلها تعيش حياة متنقلة بين الشارع والأماكن الأخرى، وبين الأربع وعشرين ساعة (من الجمعة للسبت) وباقي الأسبوع. عندما كانت تصادف تظاهُرةً أو اعتصامًا أو تحرُّكًا في أثناء وجود كرم معها، كانت تصطحبه معها. تقول ندى إنّها كانت تُسأل إن كانت تخاف من حرمانها حتى من حق الرؤية بذريعة ذلك ولكنها كانت تقول "صاحب الحق سلطان".

ولكن صاحب الحق ليس دائمًا سلطانًا؛ فنادين عرفت حقها ودافعت عنه وحاربت من أجله ولكن سلطان رجال الدين ورجال المال والذكورية كان متحكمًا ولا يزال بمصير

النساء والأمهات. تتحدث نهاية في هذا السياق عن أنَّ نادين أرادت لكرم أن يكون رجلًا نسويًا. عرفت أنه سيتأثر بالمحيط الذي سيقضي معظم وقته فيه عند عائلة والده. وأرادت في الأربع وعشرين ساعة التي تقضيها معه أن يتعلّم منها قيم العدالة. اصطحبته معها إلى الاعتصامات ليعرف ما تحارب من أجله، وتكمل نهاية: "كان بدها تربّي شاب جميل ... بيحارب عشان قضايا المرأة وما بيقبل بالظلم يلّي أمه مرقت فيه".

تعرفت نادين من خلال نشاطها إلى أمهات خسرن حق الحضانة أيضًا، قبلها وبعدها، فنشأت بينهنَّ صداقات وعلاقات شبه عائلية تقوم على رابط الألم من استلاب الأمومة. هكذا تتراءى لنا علاقة بادية فحص، الصحافية والكاتبة الناشطة في قضية الحضانة، بنادين. بادية هي أيضًا أم شيعية محرومة من حضانة طفليها منذ أربعة عشر عامًا. علاقتها بنادين كانت مرتبطة بمفهوم الأمومة والدفاع عنها، ليس فقط لأنهما حُرِمَتا من أولادهما، ولكن للأثر الذي تركته نادين فيها.

التقت فاطمة ببادية عبر زووم في أواخر أيار. ينقطع التسجيل مرات عديدة سواء لانقطاع الكهرباء أم لسوء خدمات الإنترنت في لبنان، ولكن الحديث مع بادية يبقى سلسًا وحميميًا. عرفتُ بادية من مقالات ومنشورات كتبتها عن قضيتها، ولكنها تخبرنا بأنَّ نادين هي من علّمتها رفع صوتها والمطالبة بحقها. تلاحظ بادية أنَّ النساء تربين في بيئة تقدّر فينا الخجل وتنميه ولو كان خجلًا من المطالبة بحقوقنا. لكن نادين غيّرت نظرتها عن الخجل.[٣]

في المقابلات التي أجرتها، تستعيد فاطمة في مواقع عديدة ما كتبته بادية في رثاء نادين في الذكرى السنوية الأولى:

"قبل سنوات، مشيت خلفك، في أول مظاهرة، قلت لي يومها إنَّ الحاسة التي يجب أن تكتسبها الأمهات في عصرنا، هي الصوت، الصوت العالي، يجب أن تعلمي

[٣] أنقل ملاحظة ديمة من فريق التحرير أنَّ هذا يردده أحيانًا كل جيل من النسويات والناشطات عن الجيل الأصغر: اندفاعهنّ وقدرتهنّ على إعلاء أصواتهنّ أكثر في بعض القضايا والمواضيع.

أنَّ السكوت يجتذب المزيد من الظلم، فارفعي صوتك، ليسمعك العالم كله، ليصل صوتك إلى السماء، أنا التي أكبرك بعشرين سنة، كنت حينها طفلتك، التي علمتها الكلام والمشي والغضب والاعتراض."[٤]

نتأمل هذه الشهادة، ونفكّر في كيف أعادت نادين لبادية بعضًا من حقها المسلوب بأن تكون، من خلال ربط الأمومة بالصوت واللغة والقدرة على إعلاء الصوت ضد الظلم.

في نقاشنا مع فاطمة، تشرح لنا كيف استوقفتها علاقة نادين وبادية وألمهما المشترَك:

كانت نادين، في أيام تعبها تكرر على مسمع بادية: "ما بدي يصير فيني متلك، ما بدي إبني يكبر بعيد عني وما يعرف إمه".

هذا الألم هو ما دفع نادين وبادية إلى الواجهة ضد النظام الأبوي، وإلى دعم بعضهما.

كان صوت نادين العالي في التّظاهُرات دائمًا لافتًا، أتذكره وتتذكره ربما كل من شاركت في تلك الاعتصامات أمام المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى على طريق المطار. تهتف وتبدو كأنها لا تتعب. صوتها كان أيضًا مرتفعًا عندما كان الخطاب يتطلب ذلك ولو في منشور على فايسبوك.

نستذكر الشعارات التي رددتها أو حملتها نادين في الاعتصامات: ردّدت "الفساد، الفساد، جوا جوا العمامات" بشجاعة أمام المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى. ورفعت يافطة "شرفكم ما بيمرق بين إجرينا" في مسيرة "طالعات" سنة ٢٠١٩. تقول بادية لفاطمة إنَّ أول ما لفتها في نادين، التي عرفتها بداية من خلال فايسبوك، هو تلك

---

[٤] بادية فحص، "نخبك يا نادين... هل وجدتِ أنَّ الله لا يفرّق بين رجل وامرأة". درج، ١٥ تشرين الثاني ٢٠٢٠، آخر زيارة ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٢: https://daraj.com/57444/

المنشورات المؤيدة للثـورة الـسورية. فـي تلـك الفترة، ٢٠١٢، لم يكن الكثيرون/ات من الأشخاص في المجتمع (أو المجتمعات) الشيعي(ة) في لبنان يعبّرون/نَ عن تأييدهم/نَّ للثورة في سوريا. وكانت نادين تدعم الثورة الشعبية وتنتقد مشارَكة حزب الله إلى جانب نظام الأسد في قتل الشعب السوري وتهجيره. وتكمل فاطمة:

عن حلم نادين بالهرب والعيش بعيدًا مع ابنها، تقول لي بادية في شيء من التّسويغ، إنَّ نادين فيما كانت تحاول استرداد حق مئات وآلاف الأمهات الشيعيات المحرومات من خوض تجربة الأمومة مع أطفالهنَّ، من خلال نضالها وعملها في الحملة الوطنية، فهمت أن لا طائل من انتظار عدالة من الظالمين، فيما عمرها وعمر وحيدها يمضيان.

أرادت نادين الرحيل إذًا، كما رحلت قبلها وبعدها الكثيرات من الرفيقات. لم أتوقع ذلك عندما رأيت حيويتها في الشارع. تعِبتْ ربما من الانتظار وعرفت أنها إن بقيت في الشارع هنا فلن يتسنى لها أن تعيش الحياة مع ابنها. أرادت أن تراه يكبر معها، والسنوات التي تمر لا يمكن استرجاعها. سعت إلى تحويل قضيتها الشخصية إلى قضية عامة تناضل فيها لنفسها ولأمهات أخريات ولكنها تعبت. وربما خافت أيضًا من السنوات المتتالية الضائعة. فكيف لنا أن نناضل ونقاوم التعب؟[٥] أو أن نرتاح، قليلًا أو طويلًا، لتكمل رفيقاتنا الطريق؟

نـاديــن والنـضــال النـســوي

مزجت نادين، كالكثيرات منا نساء ونسويات، ما بين تناقضات وتشعبات في شخصيتها وفي نضالها. تدل قصتها على قدرتها على التحرّك العفوي كما الالتزام في حملات طويلة المدى، والانخراط في العمل النسوي مؤسساتي الطبع. وتحاكي قصتها انصهار القضايا التي قد تُدعى "خاصة" أو لها علاقة بمجموعة أو طائفة أو هوية محدّدة، في قضايا يُنظر إليها عادة بأنها "عامة" وتنطبق على الأكثرية من النساء. مع ذلك، ما ينطبق على الأكثرية، مثل العنف، يأخذ أشكالًا متنوعة، حسب الحيوات المختلفة التي تعيش هذا العنف وتقاومه.

[٥] تجيبني ديمة بتساؤل آخر: وهل من جدوى لمقاومة الإحساس بالأسى أو الذنب أو الفقدان في كل الأحوال؟

ما تذكرنا به نادين هو حاجتنا إلى أساليب تنظيم متعدّدة، وأدوار متفاوتة يكون أثرها أقوى حين تتناسق وتفكّر بمنظور أشمل وأطول. ما تذكرنا به نادين ورفيقاتها هو الحلم بحركة جامعة، من دون أولويات في القضايا ولا تراتبية بين الأطراف والمركز.

ألاحظ أنَّ مقاومة نادين للعنف بدأت قبل فقدانها حضانة ابنها؛ كانت تقاوم العنف الجسدي والمعنوي الذي تتعرض له بشكل دائم من زوجها وعائلته. تروي أختها ندى وقائع الضرب والإهانات والتهديدات الدائمة وتفاصيلها. يبدو وكأنَّ نجاة نادين من العنف، ومن احتمال الموت تعنيفًا، في حينها، كانت لأنها قاومت ودافعت عن نفسها وثم حاولت الخلاص بابنها من هذا الواقع. لكنَّ الضرب الذي تعرضت له حينها أجبرها على الهرب وحدها.[٦] وحُرمت لشهرين بعد طلاقها من رؤية كرم الذي لم يبلغ السّنتين حينها. كانت، كما تروي شقيقتها، أيّامًا طويلة من الأرق والمرض والانهيار المعنوي. عادت لنادين قدرتها على المواجهة عندما حصلت على حق رؤية كرم لأربع وعشرين ساعة. كان ذلك اليوم في الأسبوع طريقها للتعافي ولتنطلق في رحلتها لاستعادة حضانة كرم.

بعدها بدأت رحلتها في الشارع وفي العمل لاستعادة حقها الشخصي، ولكن أيضًا للوقوف مع نساء أخريات ولرفض القمع والظلم.

تحكي نهاية لفاطمة عن عفوية نادين في التحرّك وتجميع القدرات وهي أجمل ما فيها حسب قولها. تتذكر قصة عن نادين، كيف اتصلت بها في أحد الأصباح حين كان يتم التداول بقانون يسمح بتزويج المغتصب بالضحية لإسقاط التّهم عنه. طلبت منها نادين شراء طرحة وملاقاتها بسرعة، وإحضار يافطات كرتونية وملء‌ها بالشعارات. أتت نهاية بالطرحة ولجأت إلى أصدقاء يسكنون قربها في فرن الشباك لمساعدتها في الكتابة ثم ملاقاة نادين وناشطات أخريات في الشارع للاعتصام.

تردّد زميلات نادين أنها لم تصبر على الاجتماعات والتخطيطات التي تتطلب الوقت. أرادت التحرّك في الشارع مباشرة. تصرّح نهاية بأنَّ المرأة التي تتعرض اليوم للضرب من

[٦] تروي فاطمة فؤاد تفاصيل القصة في نصها عن لسان ندى.

زوجها أو للتحرش في الشارع لا تستطيع أن تنتظر القرارات التي يجب أن تتخذ بالطريقة التقليدية البطيئة.

وتتساءل نهاية في حديثها مع فاطمة عمّا إذا كانت النظرة الفوقية هي التي تدفع بعض النسويات العلمانيات إلى الامتناع عن المشارَكة في الحملة ضد المحكمة الجعفرية.

ولأنَّ الأسئلة كلّها في ورشة المعارف تفتح لنا مجالات للنقاش نحاول التفكير فيها والتعمّق في طبقات وثنايا تجارب النساء والنسويات على اختلافها، فقد ناقشنا هذا السؤال في اجتماعاتنا التحريرية؛ قالت لي ديمة: "ليست الفوقية وحدها ما يبعد الكثيرات من النسويات من مطالب لها طابع ديني - بالرغم من وجود مقاربات وممارسات فوقية وطائفية وطبقية. هناك أيضًا إرثٌ تاريخي طويل من القمع الديني للنساء والترهيب للنسويات، ليبدو أنَّ التغيير في الممارسات الدينية أقل جدوى -حسب بعض النسويات - من العمل على قانون موحّد". ومع ذلك، استطاعت بعض النسوة والنسويات، انطلاقًا من وجع شخصي و/أو تضامنًا مع أوجاع النساء، النضال في أكثر من جبهة.

هكذا تبدو نادين لمن عرفنها: كانت علمانية وأيَّدت قانونًا مدنيًا للأحوال الشخصية في لبنان. ولم يكن هناك تناقض في مطالباتها بتعديل قانون طائفة لإعطاء النساء فيها حق الحضانة.

عرفت نادين وهي ملتزمة في حملة "حضانتي ضد المحكمة الجعفرية"، أنَّ هذه القضية سوف تأخذ وقتًا طويلًا حتى وهي تدفع بها نحو المزيد من المواجهة. وعملت في الوقت نفسه، في مؤسسة "أبعاد"، وهي منظمة للمساواة الجندرية والمساعدات الإنسانية والإصلاحات القانونية. فدمجت ما بين التحرّك في الشارع والعمل الممأسس والمأجور. نادين قدّمت مثالًا جيّدًا عن الحضور في أكثر من مساحة، واستعمال أكثر من أداة للنضال، فكانت واضحة وصريحة دائمًا في خطابها ضد النظام الأبوي وضد أشكال الظلم والقمع كافّة، ولكنها عندما احتاجت إلى أن تكون عملية لتحصيل حقها، فاوضت وناقشت وناضلت لتغيير بند في قانون طائفة تدرك أنه بأكمله جائر.

عندما قابلَت فاطمة بادية فحص وسألتها عن الحركة النسوية في لبنان، أجابت بأنَّ ما ينقصنا هو التضامن الذي كانت تمارسه نادين. تعود الفكرة نفسها في المقابلة مع صفا، صديقة نادين، التي تعتب على النسويات لمهاجمة بعضهنَّ عند حصول أزمة، بدلًا من التضامن. تتفق صفا وبادية، كل بكلماتها وتعبيرها، على أهمية التضامن وعلى ضرورة إعطاء المجال لكل رأي ولكل قضية من امرأة أخرى، وتتذكران أنَّ ذلك كان أساسًا في عمل نادين.

والتضامن مع بعضنا لا يلغي ضرورة الحفاظ على تفكير نقدي يسمح لنا بتفكيك ما يحصل للتمكّن من البناء عليه، ولا يملي علينا أن نحمل القضية نفسها، ونستعمل الأدوات ذاتها.

لكن ما نتذكّره عن بعضنا قد يكون أننا ساندنا بعضنا في الأوقات الصعبة، أو لم نساند.

بيـروت التـي نهـرب منـها

خلال المقابلة تقول صفا لفاطمة إنَّ الحياة في بيروت طحنتها. "لا أريد أن أتكلم بلسان نادين"، تردّدها عدّة مرات في أثناء المقابلة وكأنها تخاف من أن تسرق حياتها وصوتها، ولكنها تفترض أيضًا أنَّ نادين اختبرت حياة بيروت الصعبة بطريقة شبيهة. علّمتها تجربة الانتقال من ضيعتها في الشوف إلى المدينة - بيروت - الكثير، وغيّرت فيها الكثير، ولكنها، كما تقول غير متأكدة ممّا إذا كان للأفضل أو للأسوأ. تستذكر صفا أنَّ مراحل عديدة من تلك التجربة كسرتها ولكنها عندما تقارنها بالأزمات المتلاحقة منذ ٢٠١٩ لليوم تبدو لها أصغر بكثير. فهل يصغر شعورنا بالأسى حين يمر عليه الزمن؟ أم أنها فعلًا مرحلة الانهيار الكبير الذي يجعل أوجاعنا السابقة تبدو أقلّ إيلامًا؟

أمّا نهاية، التي عاشت في بيروت خلال سنتَي ٢٠١٥ و ٢٠١٦، فهي تصرّح بأنَّ "بيروت بتبلع". في آب ٢٠١٥، حين بدأ الحراك في بيروت بعد أزمة النفايات كانت نهاية تتصل بنادين كل يوم لمعرفة ما يحصل في الشارع حيث كانت نادين دائمًا موجودة. نادين وصديقتهما المشترَكة، نورهان، هما اللتان شجّعتاها على المجيء إلى بيروت عندما

رأت من خلالهما ما يحدث في الشارع، كما تسرد لفاطمة. أرادت نهاية أن تعيش في بلاد تتحرك، وحركة الشارع في بيروت في ٢٠١٥ كانت الحافز إلى المجيء. أنهت أمورها الإدارية والمالية اللازمة قبل مغادرة الولايات المتحدة، حيث استعجلتها نادين للقدوم لتشاركها يوم خطبتها. وهكذا وصلت نهاية إلى بيروت في أواخر أيلول ٢٠١٥. الأيام والشهور اللاحقة لم تكن سهلة. شاركت نهاية في التحرّكات التي كانت تحصل في الشارع، وحاولت أيضًا أن تجد عملًا. وكانت نادين لا تبخل بوقتها ومساعدتها في ذلك كما تقول، ولكنَّ إيجاد عمل في بيروت لم يكن سهلًا. كانت نادين تتصل بها لملاقاتها في الحمرا، تمشي لتصل من بيتها إلى الطيونة لتستقل "الفان رقم ٤" وتلاقيها في الحمرا "نشتري قهوة، نقعد عالرصيف نحكي، لما نُصرف مصاري".

اضطرت نهاية إلى مغادَرة بيروت في منتصف ٢٠١٦ تقريبًا والعودة إلى القدس لظروف معظمها يتعلّق بتعقيدات إجراءات إقامة الفلسطينيّين/ات في القدس تحت الاحتلال، واضطرارهم/نَّ إلى تجديد تصاريحهم/نَّ كلّ ثلاث سنوات. بعدها بسنوات عادت نهاية إلى الولايات المتحدة. وتركت صفا لبنان لتعيش وتعمل في الإمارات، ومثلها بادية. قابلَتهنَّ فاطمة جميعًا أونلاين وسمعت منهنَّ أنَّ نادين أرادت الرحيل أيضًا. نرحل جميعًا بشكل أو بآخر من هذه البلاد. أمّا ندى، فبقيت في بيروت.

كما صفا، صديقة نادين، لا أريد أن أسرق، فيما أكتب هنا، صوت نادين أو أتكهَّن بما كانت تشعر. الشارع والنضال وأساليبنا المختلفة والعديدة في المقاومة أدوات نستخدمها في طريقنا إلى العدالة، تتعبنا أحيانًا وتشفينا أحيانًا أخرى.

تضحك نهاية طوال المقابلة مع فاطمة، تقول إنَّ نادين علّمتها الضحك وأخذ الأمور بالمزاح دائمًا، وإنَّ نادين حتى في رحيلها تضحكها.

ولكن لا ننسى أنَّ نادين كانت تبكي أيضًا.
ولا ننسى أنَّ نورهان فارقتنا، انتحارًا.

لا تكون الذكريات أبدًا حقيقية تمامًا. دائمًا ما تحمل معها أجزاء محددة من الذاكرة كما ترتبط بحالتنا في اللحظة التي نتذكر فيها. ولكن صديقات نادين، كيفما تذكرنها يتذكرن

ضحكاتها وغناءها كما يتذكرن بكاءها وتعبها.

فالصراخ أو الهتاف في الشارع وفي الاعتصامات، عدا عن كونه فعل رفض، هو أيضًا طريقة للشفاء ولإخراج الغضب الكامن. هل كانت نادين تراكم حزنها وقهرها وتعبها، لتخرجها غضبًا في وجه المحكمة الجعفرية التي حرمتها ابنها والنظام الأبوي الذي يحاول إسكاتها؟

صحتنا النفسية والذهنية كنساء لا تتعلق فقط بحياتنا الشخصية، وتنتج قبل كل شيء عن بنية النظام الأبوي الذي نعيش فيه والتجارب التي نخضع لها كنساء وتشكل تفاعلنا مع المحيط وقدرتنا على مقاومته، أو ربما قبولنا به بسبب التعب. كيف نعرف أنَّ رفيقاتنا بصحة جيّدة؟ كيف نحدّد قدرتنا على المقاومة؟ وكيف نواصل دعم بعضنا ونتجنب الإرهاق؟ انتحار رفيقاتنا عبء آخر يلقيه هذا النظام فوق رؤوسنا فنتساءل: كيف كُنَّ يضحكن ويقاومن معنا في الشارع، وكيف لم نلاحظ أنَّهنَّ متعبات إلى هذه الدرجة؟

نحاول جميعًا النجاة.

نادين تعبت وأرادت أن تغادر مع كرم، بادية وصفا غادرتا بعد الانهيار، ونهاية التي تعيش في الولايات المتحدة حيث القانون أفضل من هنا بكثير تقول إنَّ من الصعب أن نجد -نحن النساء العربيات- الراحة في أي مكان.

بينما كنت أنهي كتابة النص في أوائل آب ٢٠٢٢، ظهر أمامي بالصدفة مقال عن الحضانة والمحكمة الجعفرية،[٨] يروي مبادرة مجموعة ناشطين/ات لدعوة رئيس المحاكم الجعفرية إلى نقاش حول الحضانة واجتماعه معهم/نَّ "تحت شروط" وقوله

---

[٨] مريم سيف الدين، رئيس المحكمة الجعفرية في ندوة حول الحضانة: "أحكام الله" لن تتغيّر، نداء الوطن، ٣٠ تموز ٢٠١٩، آخر زيارة ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٢
https://www.nidaalwatan.com/article/2282--أحكام-الله-لن-تتغير-رئيس-المحكمة-الجعفرية-في-ندوة-حول-الحضانة

بعد النقاش إنَّ "أحكام الله" لن تتغير. يطول المقال ليعرض أمورًا قانونية وسياسية أوسع، ولكن هذه الجملة تكفي لأشعر بأننا نحارب طواحين الهواء في بعض الأحيان. أتساءل عمّا إذا كان هنالك احتمالات لتفتيت هذا النظام، ثم أذكّر نفسي بأننا ما زلنا قادرات وبأننا نتبادل الأدوار والمواقع حسب إمكاناتنا، إن لم يكن لنغيّر غدًا فلنزعجهم كما أزعجتهم نادين ورفيقاتها بصوتهنَّ، ولا يزلن.

بادية ما زالت تكتب، ونهاية ما زالت ترفع الصوت من أجل فلسطين ومن أجل النساء، وعائلة نادين ما انفكّت تحاول المشارَكة في حضانة كرم. هل هو الأمل؟ هل نتوقع التغيير فعلًا؟ لا أعرف، ولكن ذلك الإصرار هو طريقتنا للتعافي من ثقل هذا النظام؛ فكل محاولة للكتابة، وكل صرخة بصوت عالٍ، وكل فعل تضامن ودعم لنساء ربما لا نعرفهنَّ، يمكن أن تكون أيضًا تعافيًا ودافعًا لنستطيع أن نكمل.

خياراتنا محكومة دائمًا بحدود هذا النظام الذي يقمعنا، نلتفّ حولها لنتمكن من النضال من أجل حقوقنا والحفاظ على صحتنا النفسية والجسدية بقدر المستطاع. بعضنا يختار الانسحاب أحيانًا ليرتاح، وبعضنا الآخَر يختار الانتقال إلى أماكن أخرى حيث إمكانيات الحياة والنضال مختلفة عن هنا، وهناك مَن يكمل هنا بما توفر من طاقة ورغبة أو عدم قدرة على الرحيل.

الخاتمة: الحداد إرثنا

عرفتُ من فاطمة أنها التقت ندى، أخت نادين، في منزل العائلة، في الضاحية الجنوبية لبيروت. وهو المنزل الذي عاشت فيه نادين معهم بعد طلاقها قبل أن تقرر لاحقًا الانتقال لتعيش وحدها في بيت خصصت فيه غرفة لكرم. أجرت فاطمة وندى مقابلة التاريخ الشفوي في يومين متتاليين تقديرًا لكل المشاعر التي تفيض بها ندى عندما تحاول الكلام، وهي التي تقول إنّها المرة الأولى منذ الحادث التي تتمكن فيها من التحدّث عن ذكرياتها مع نادين.

أنقل تسجيل المقابلة إلى هاتفي وسماعتي في أذني، وأنزل لأتمشى في ليلة حارة من ليالي بيروت، أمشي وأستمع وتنهمر دموعي، أمسكها بصعوبة وأشكر الكهرباء المقطوعة في الأحياء على إخفاء وجهي عن المارة.

تعرّف ندى بنفسها باسمها الثلاثي ثم تلحقه مباشرة بقول "الماما اسمها ماجدة" وتكمل بتلقائية. تبدو أمها جزءًا من تعريفها بذاتها. تخبرنا بأنَّ عمرها خمسة وثلاثون عامًا، وأعرف أنَّ نادين ماتت في التاسعة والعشرين من عمرها. بينما تروي ندى لاحقًا قصة ولادة نادين: تقول إنَّ عمرها كان حينها ثلاث سنوات ولا يستوعب عقلي الأرقام، كيف ٢٩ و٣٥ والفارق ثلاث سنوات؟ ثم أتذكر أنَّ ثلاث سنوات تقريبًا قد مضت منذ وفاة نادين، وأنها لو ما زالت موجودة، لكانت اليوم في الثانية والثلاثين من عمرها. يتوقف عمر من يموت ونستمرّ نحن في عدّ السنوات.

كان قد مضى على موت نادين أكثر من سنتين ونصف في وقت المقابلة، ولكن ندى تقول إنّها لا تزال عالقة عند فكرة الموت، لم تتخطّها بعد؛ موت نادين، ثم موت أمها بعدها قهرًا كما تقول. كانت والدتها مريضة سرطان تخضع للعلاج ولكن موت نادين كان موجعًا، حيث لم يعد أي علاج فعّالًا. تقول إنّهم انتظروا أربعًا وعشرين ساعة بعد الحادث قبل أن يخبروا والدتها، التي كانت في المستشفى، بموتها. فكيف تخبر أمًا بأنها فقدت ابنتها وبأنها لن تراها حتى في موتها؟[٩]

تحتفظ ندى بصور لكل اللحظات مع نادين ومع كرم ومع والدتها، ولهم مع العائلة، وبتسجيلات لأوقات العائلة مع كرم في الأربع وعشرين ساعة التي كان يسمح لهم فيها برؤيته. واليوم كل ما تبقّى لها من أمها، وأختها، وكرم أيضًا، هو هذه الصور على هاتفها، التي لا تجرؤ على نقلها إلى مكان آخر رغم امتلاء ذاكرته؛ كأنَّ الذاكرة ترفض فكرة المحو ولو رمزيًا وتقف عند خوفنا من الفقدان بأي شكل، ولو جاء هذا الخوف على شكل اختفاء صور الذكريات من ذاكرة الهاتف ومعرفتنا أنها محفوظة في مكان آخر.

---

[٩] ونتذكر اليوم الأشخاص الذين يموتون لعدم توافر الأدوية، ومنها أدوية السرطان، أو لوجودها مغشوشة وبلا أي فعالية.

تسألها فاطمة عن طبخ نادين وعلاقتها بالأكل، فتجيبها بأنها كانت تحب اللوبية بزيت، ساخنة، والبرغل بالبندورة وأيضًا البطاطا المقلية مع الكاتشاب، والهامبرغر.

طوال المقابلة تتكلم ندى ذارفةً سيلًا من الدموع والأسى، ولكن عندما تُسأَل عن أكلات نادين المفضلة يعود نوع من الفرح في صوتها وتعتب على فاطمة لتذكيرها بطبخ نادين اللذيذ: "طلع ع باي هلق، شو بعمل؟!"

نسأل رفيقاتها وتجيب كل بطريقتها، ولكن ندرك أنه لا يمكن أن نعرف اليوم كيف كانت ستتفاعل نادين مع كل ما حصل ويحصل. كيف كانت ستعيش الانتفاضة؟ وكيف كانت ستعيش الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والصحية المتلاحقة؟ ما يعرفنه ومتأكدات منه هو أنّهنّ افتقدنها في الساحات والتّظاهُرات وافتقدنها في أيام الشدّة، وحاولن تخيُّل كيف كان لوجودها أن يبدُوَ. كأننا ندرك أننا نتذكر الراحلات في ذاتيتنا وإدراكنا الحالي المختلف، وكما نريد لهنَّ أن يكنّ من دون أن نعرفهنَّ تمامًا.

مقابلات التاريخ الشفوي

في رفقة نادين جوني

٢٤

مقـــابلـــة مـــع نـــدى جـــونـــي

فاطمة فؤاد: نحن اليوم موجودات في بيت المرحومة نادين جوني، حيث نقابل أختها ندى. ندى، بتعرفينا عن حالك شوي؟

ندى جوني: أنا إسمي ندى خليل جوني. الماما إسمها ماجدة جوني. عمري ٣٥ سنة. نحن تلات بنات وشاب، أنا الكبيرة، ونادين المرحومة المناضلة والصحفية والإعلامية والناشطة النسوية وإم كرم [بصوت يرتجف]. وعنّا كمان إخت إسمها منى، إمّها لنادين الصغيرة؛ وعنّا إبراهيم دارس هندسة، ومنى بتشتغل معلمة.

ف.ف.: بتخبرينا شوي عن بيتكن الأوّل يلّي ترعرعتوا فيه وسكنتوا فيه؟

ن.ج.: أكيد، نحن بيتنا الأوّل كان مش هيدا البيت. أوّل شي كنت أنا وإختي، نادين، بعدين منى، ربينا على الحب والمحبة والصراحة والتفاهم. والحلو بأهلنا إنّه ما ربونا بس إنه هني بابا وماما، ربّونا إنّه نكون أصدقاء لإلهن، ربّونا إنّه نكون عنجد إخوة بكل معنى من كلمة، حتى إنّه نكون كتير close [قريبين] مع بعضنا، لأبعد حدّ، لو شو ما بصير معنا في الماما وفي البابا، هنّي كانوا بكل مسيرة حياتنا لحدّيّة هلق، دعمنا وسندنا وحبنا والعاطفة، كل شي، يعني ما انحرمنا من شي.

إذا بدنا نحكي كمان كيف نحن كنّا من نحن وصغار، يعني أكتر وحدة فينا، كانت نادين من هي وصغيرة ثوريّة، هي كل شي تعارض، رغم كل شي كان ينعملها متل ما هي بدها. من هي وصغيرة عندها ياه هيدا الحب، إنّه أنا المتمرّدة، أنا الثائرة، وإنتو كلكن معي، يعني ولا نهار اشتغلت إنّه بس أنا. لا، تشتغل عنّي وعن إختي وعن الكل، تمثّلنا وتحكي بصوتنا وبإسمنا، بس كمان إنّه نحن موجودين. عفكرة نادين، من هي وصغيرة بتحبّ البنت تكون شخصيّتها قويّة، هيدا الشي كان كتير حلو بالنسبة إلنا نحن وصغار. أنا كنت كمان كتير خاف على إخواتي البنات لما كانوا صغار، بتعرفي إنت بس تكوني الولد الكبير، أهله بقولوله مثلًا إنّه إنت الكبير انتبه، يعني أنا كنت كتير خاف عليهن، وكنت كتير معلّقة فيهن. وهلق عفكرة بفرجيكِ صورة أنا وياها، هيدي الصورة كتير بحبّها نحنا وصغار، كيف كنّا مهدّيين بعضنا [تصمت لثوانٍ]. ونادين عفكرة من النوع يلّي كتير حنونة وكتير قلبها طيّب...

كنّا كتير نمزح، كنّا كتير نتضحّك، كنّا كتير نلعب، كنّا سند لبعضنا، كنا نتخانق ولمّا نتخانق يعني [تضحك] خربت الدنيا، كنّا ندافع عن بعضنا يعني عن حقّ، حتّى مثلًا لمّا نكون برّا ندافع عن بعضنا نحمي بعضنا.

وكنّا مثلًا نعمل تحالفات مع بعضنا ضدّ إختي الصغيرة، أو مثلًا هي وإختي الصغيرة ضدي. اشتقت لكلّ شي بخصّ هيدي الأمور كلّياتها.

وعفكرة هاي أوّل مرة أنا بحكي عن هيدا الموضوع، عن الطفولة، لأن أنا خسرانة إخت وإم، ما بعرف هلق يمكن لأنّه هيك ربنا بدّه، إنّه أنا إحكي، طلّع الإشيا يلّي أنا ما بحكي فيها، بالرغم هي كلّها حلوة، كنّا عايشين عنجد بكل معنى من كلمة. بس أنا بالنسبة إلي واقفة عندي الحياة من الحادث وطلوع [تصمت].

ف.ف.: سألتك عن البيت، هيك كيف بتتذكّري المكان، وين كنتوا تلعبوا مثلًا إنتو وصغار؟ شو كنتوا تلعبوا؟ شو ألعابكن المفضّلة؟

ن.ج.: نحن لمّا كنّا نلعب نحن وصغار، نلعب بيت بيوت، الأخوة بس نكبر، نلعب مثلًا دكتور ومريضة، مهندسة، ألعاب الأولاد العاديّة، مثلًا ال puzzles. كنّا نلعب أكتر شي لعبة إنسان حيوان شيء، كنّا كتير نلعبها [تضحك] ونتضحّك. نلعب حزازير بالعمر شوي أكبر. كانت ماما كتير تلعّبنا نحن وصغار، تحكيلنا قصص. كان عنّا حبّ القصص والروايات، تجبلنا ماما قصص بال English وبالعربي، كانت تقرالنا ياهن أو نحن لمّا بلّشنا نتعلّم نقرا لبعضنا. كنّا ننام حدّ بعضنا، البيت كان كتير حلو بالنسبة لإلنا. كان عنّا هيدا البيت -البيت القبل هيدا هوّي- ماما كانت الله يرحمها تزرع، تحطّ مثلًا ورود وشتلات، وكان حوالينا اللوحات، الكتب، الرسم. والبيت كنّا كتير نحبّه، حتّى لمّا فارقناه بكينا. لمّا إجينا لهون، أوّل فترة كنّا نتضايق، إنّه كيف بدنا نطلع من هيداك البيت نحن خلقنا وعشنا فيه منيح بحياتنا، وتلاتتنا خلقنا هونيك بهيداك البيت [تصمت].

كمان يعني ما تغيّر شي علينا، بس إنّه صارت مساحة البيت أكبر، صار في كلّ شي بشكل أكبر وهيدا البيت كتير نحن منحبّه، وهيدا البيت يلّي نحن منحسّ فيه بالأمان، وحتّى لمّا كانت إمّي عايشة كمان كنّا نحسّ بالأمان اتّجاه إمّنا، حتّى مع البابا. البابا من نحن وصغار، هو والماما، مربّيينّا على شي إسمه صراحة، شي إسمه أخلاق، شي إسمه تهذيب، شي إسمه نحن منضلنا معكن، على المرّة والحلوة، على الإيجابي والسلبي، كانوا هنّي دعم وسند لإلنا بكلّ شي، يعني حتّى مثلًا إذا غلّطنا، متل أيّا ولد أو أيّا بنت بتغلّط، طبعًا غلطة عن غلطة بتفرق، بس إنّه كانوا يساندوننا، يوعّونا. كانت عفكرة الماما حدا كتير مثقّف، كانت تشتغل على فكرة التوعية من نحن وصغار، عن كيف نحمي حالنا، كيف ندافع عن حالنا، كيف نساعد حالنا، كيف نوقّف عإجرينا...

ف.ف.: بتتذكّري شي أوّل ما خلقت نادين، هيك عندك ذكريات عن أوّل كم يوم، أوّل كم شهر؟

ن.ج.: لأ، بحسب ما ماما كانت تقول لي إنّه أنا كنت كتير خاف عإختي، كانت تحمّلني ياها، إنّي حاول نيّمها، ضلّني معها وحَدّها. لا فارقت إمّي ولا فارقت إختي، حتّى كمان أنا فيني شغلة مثلًا بحطّ وجّي على وجّ إخواتي، يعني لحدّيّة هلق كمان، بعتبرها هيدي الشغلة قديه أنا بحبهن، فبحطّ وجّي عوجّهن، هلق بستعملها مع ولاد إخواتي كمان، كنت إستعملها مع كرم، وانشالله بكرا بس يرجع يجي ونشوفه، هلق مثلًا بستعملها مع نادين الصغيرة بحطّ وجّي عوجّها. نحن كتير ربينا على فكرة إنّه نحن نحبّ بعضنا، نكون مخلصين لبعضنا، ونكون صادقين مع بعضنا قبل ما نطلع عالمجتمع.

ف.ف.: طب هيك رح ننطّ كم سنة لقدّام، وإسألك عن إيام المدرسة، كنتوا تروحوا على نفس المدرسة؟ وكيف كانت مثلًا، شو في عندك ذكريات من المدرسة؟ لمّا ترجعوا على البيت، كيف كان يكون جوّ الدرس، مين يدرس، مين لأ؟

ن.ج.: هلق يلّي كان متل ما بقولوا ال genius [عبقرية] درس، نادين، [تضحك]، نادين كانت كتير متفوّقة وممتازة.

ف.ف.: وهيك لمّا كانت نادين مثلًا بعدها مراهقة، بأوّل مراهقتها أو بنصّها، بتتذكّري شو كان على بالها تصير لمّا تكبر؟ شو كانت أحلامها بهيديك المرحلة؟

ن.ج.: كان عندها أحلام كتيرة وطموحات كتيرة، كانت تضلّها تقلّنا إنّه إنتو بدكن تفتخروا فيني، [تصمت]، كانت عندها حلم إنّه تصير أهمّ صحفيّة وأهمّ إعلاميّة.

ف.ف.: فهي بتحبّ الصحافة من صغرها؟

ن.ج.: صح، يعني لمّا كانت صغيرة، كانت تجيب مدقّة الثوم وتوقف وتحكي، وأوقات تلقي نشرة أخبار، أو مثلًا تعمل مقابلة، وكان هيدا عندها ياه حبّ من هي وصغيرة، وكانت من النوع يلّي بتفرض شخصيّتها .

ف.ف.: وكتار من رفقاتها خبّروني قديش هي بتحبّ الموسيقى وبتحبّ الرقص. هل هيدا شغف نما معها خلال مراهقتها أو طفولتها؟

ن.ج.: نحن بالبيت إجمالًا منحبّ الموسيقى، منحبّ الكتب، وعفكرة هي بخزانتها لحدّيّة هلق في كتب، والموسيقى على أنواعها، في كان نمط معيّن من الموسيقى كانت هي كتير بتحبه، مثل الأغاني الشعبية المصريّة.

ف.ف.: كيف كان لقاءكن الأوّل بكرم؟

ن.ج.: كان لقاء كتير حلو، لمّا منشوف أوّل حفيد بالعيلة، أنا مثلًا لمّا شفت إختي زلغطتلّها، العروس خلّفت صبي، فبيتزلغط للمولود، بيتزلغط للعروس.

ف.ف.: كيف بتتذكّري نادين بهاي المرحلة؟ أوّل ما إجا كرم على الدنيا؟

ن.ج.: بصراحة نحن ما فارقناها، يعني حتّى بفترات المشاكل ما فارقناها. كنّا نضلنا مع بعضنا وسوا، حتّى كان [الزوج السابق] عنده مشكلة ببيتنا، إنّه المشكلة بقلب البيت، إنّه بطّلت عاجبيته أخلاقنا كمان، ومنّنا مربّايين، وإشيا كتير، صار هو بده يربّينا كمان. بس نحن لمّا منشوف هيك شي، إحترامًا لإختنا ومن محبتنا لإختنا منقصر المشكل، منقصر الشر يعني، عشان هي ما تنقهر وما تزعل. وكنّا كل يوم نروح لهونيك مع تسميع حكي، إنّه مش كل يوم لازم كلكن تجوا. فصارت ماما تروح لحالها هي والتاتا، صرنا نخفف روحاتنا. صارت [أم الزوج السابق] تضايق إمّي، تضايق ستّي. إختي حرام –إختي عانت شوي بمسألة الرضاعة، صارت تقشّطها الولد، هو وعصدر إمّه، تعملّه ببرونة، هي تعطيه الببرونة. صارت هي ماخدة هيدا الدور تبع الإمّ، هي، مش إختي. وهي أساسًا من وقت كانت نادين حامل، كانت تقول ع مسمع الكل: "بحياتك ما بتصيري أم، أنا الأم والولد يلّي ببطنك إلي". فصارت إمّي تضطر تقول لإختي مثلًا بينها وبينها، إنّه "ماما إنتِ بدك تاخدي إبنك، مرت عمّك أوك عالعين والراس، بس إنتِ الإم، إنتِ إمّه لكرم. إنت هيدا الدور، شدّي حالك وهاي أنا كل يوم عم زورك وساعدك". أمي قلبها طيب ومسالمة، ما كانت عارفة شو عم يخططوا.

ف.ف.: بدي إسألك عن بدايات نشاط نادين بالمجال النسوي. كيف بلّشت؟ كيف كانت عم تقلّع أوّل فترة؟

ن.ج.: ليكي نادين كانت الناس تقصدها، البنات يقصدوها. نادين من وقت ما دخلت بشي إسمه حقوق إنسان، وحقوق طفل وحقوق إم، وقضيّتها وقضيّة نساء من الطائفة الشيعية، الناس تجي، بالآلاف، نادين كانت تذكر هيدا الشي بصفحتها: البنات لأنهن بحسّوا بالأمن وبالأمان معي، كانوا يجوا يحكولي، ساعدينا و...

ف.ف.: وهي بلشت تحكي عن قصتها وتجربتها على فايسبوك؟

ن.ج.: على فايسبوك، بس قبل فايسبوك كانت تحكي قصتها وتجربتها بالشارع، نادين نضالها بالشارع مش على فايسبوك. فايسبوك الصورة الثانية، للأشخاص يلّي مش موجودين معها بالشارع.

ف.ف.: وين بالشارع تحديدًا؟ يعني كيف بلّشت تشتغل على قضيّتها وتشبّك بقضايا النساء الباقية؟

ن.ج.: نادين معروفة إنّه ثائرة بكل الشوارع، ما في شارع محدد لنادين، يعني نادين وين ما بتروحي ممكن تلاقيها وتسمعي صوتها، بالنبطية بتسمعي صوتها، بصور بتسمعي صوتها، بعكار بتسمعي صوتها، بطرابلس بتسمعي صوتها، بالمخيّمات بتسمعي صوت نادين.

ف.ف.: هيدا كان مع تأسيس حملة الحضانة ضد المحكمة الجعفرية؟

ن.ج.: باعتقد إيه.
نادين تعلّمت من الشارع شو يعني إمرأة مكافحة، غير مثلًا يكون بيّي عم بقلّها، عم بوجّهها، أو الماما، لمّا بتكوني على أرض الواقع شي ثاني...

ونادين يعني تركت بصمة كتير كبيرة بالطفولة بالتحديد كمان. نادين اشتغلت على حقوق الطفل، وحقوق القاصرات وتزويج القاصرات، نادين اشتغلت كتير على هيدا الملف، حطّت كل دعمها وقوّتها فيه. نادين بالنسبة لإلي، صح هي إختي بس هي موسوعة، هي هيدا البركان يلّي بضل عم يشتغل وبضل عم بكافح وعم بناضل وصوها بتلاقيه وين ما كان.

كرم كان كل حياتها لنادين، كرم يعني هو وربنا بنفس المقام عند نادين. كانت تقول أنا وعم بعمل هيدا الشي كرمال إبني، كرمال كرم، كرمال أطفال غير كرم، كرمال كل النساء، كرمال الأمّهات. نادين حدا كتير عنده عطاء، حدا كتير محب، إذا بدي إحكي عنّها من هون لبكرا يمكن ما بوفّيها حقّها، بس أنا بحاول قدر الإمكان إحكي عنها.

ف.ف.: خبّرتيني قصّة مؤثّرة وملهمة جدًا عن إحدى الصبايا يلّي ساعدتهن نادين واستقبلتهن عندها بالبيت. فيكِ ترجعي تخبرينا ياها نحن وعم نسجّل هلق؟

ن.ج.: إيه أكيد، نادين كانت تنقذ كتير بنات من العنف الأسري، من العنف الزوجي، من التسلط والأبويّة. كانت في صبية عم تتواصل معاها لنادين عبر الفايسبوك وحكت لها قصتها وطلبت إنّه إختي تساعدها، إنّه بدهم يجوزوها بالقوة لحدا هي ما بتحبه، وحابسينها بالبيت، فكانت إختي عم بتخطط لكيف بدها تساعدها، إذا هي محبوسة بهيدا البيت، فكانت عم تشتغل عالموضوع معها، لحتّى تضهر من البيت وإختي ناطرتها بضيعتها وبمطرح قريب من محيط البيت، فدغري إجت لعند إختي، وأخدتها نادين ونزّلتها من ضيعتها وجابتها لعنّا عالبيت.

نحن خفنا على إختي، خفنا تجي العيلة لهون، يعرفوا شي عننا. قالت لأ، إنتو بأمان وأنا بأمان والبنت بأمان، بس أنا البنت ما رح خلّيها هون أكيد. هي هون كم ساعة لحتّى إنقلها على دار الأمان، فاستقبلنا البنت حاولنا نأمن لها نوع من الراحة والأمان. وحتى لمّا نقلتها إختي على دار الأمان، نقلتها كمان بكل أمانة. وصارت تتكرّر أكتر من مرة، مع كذا صبية تجيبها، لحتّى تأمّنها وتضهّرها. ونحن نعيش معها هيدي الامور.

وكنّا عنا هيدا الخوف، ضلّك انتبهي، نحن منخاف عليكِ، فلمّا توفّت إختي هي البنت حكيتني، هي عملتلي add [إضافة على فايسبوك]، وحكيتني.

ف.ف.: بتحكيلي عن النهار اللي بيجي فيه كرم، عن ال ٢٤ ساعة كل أسبوع يلّي يحق لها أن تراه؟

ن.ج.: هيدا النهار، عنّا ياه كان مُقدّس، نهار جمعة وسبت يكون كرم معنا. للأسف قانون المحكمة الجعفرية هو قانون مجحف بحق النساء والأمّهات والأطفال، هو عبارة عن مسلخ بشري بيسلخ الأطفال عن أمّهاتهن. وهيدا أبدًا ليس شرع الله هيدا شرعهم إلهم، شرع الجيوب والنفوس والنفوذ، شرع الفساد، والفساد الفساد جوّا العمامات، هيدي مقولة نادين قدام المحاكم الجعفرية وقدام المجلس الشيعي الأعلى يلّي كانت دائمًا تصرّح فيها، وما تخاف بالعكس تواجه وتكون على الأرض وبصوتها العالي: أنا إلي حق عندكم، إنتو حرمتوني إبني، هول النساء متلي كمان محرومات من أولادهن. وبكتير مطارح تمّ الإجتهاد لحق المرأة ولحق الطفل وبحق الحضانة، إلّا بالمحاكم الجعفريّة مصرّين يضلّهم ديكتاتوريين بحق المرأة والطفل، ديكتاتوريين بكل معنى الكلمة.

فلما نادين تطلّقت، طبعًا تنازلت عن كل شي، ما عدا الحضانة وما في حضانة في شي إسمه حق رؤيا للأم بعد الطلاق، ويلّي هو حكم إلها القاضي ٢٤ ساعة. حتى هيدا الحق ممكن يحرموها منه مستخدمين النفوذ والمال. صح نادين انقهرت وبكيت وتعذبت، بهيدا الشي عنجد نادين مرضت، سخنت حتى بطلت تنام، تفيق بالليل بس بدها كرم، تصرّخ، تبكي، بدي كرم جيبولي إبني، بس كان في من الجانب الآخر إنّه خلص هيدا إبننا مش إبنك، من البداية يعني هيدا إبننا مش إبنك. برجع بقلك، هني خططوا ونفّذوا بكل شي، كأنه بدهم بس يتزوج إبنهم ليجيبوا ولد يقشطوها ياه، فلما بلشت نادين تشوف إبنها، بصرت النور عن جديد عم تشوف كرم.

نادين بهاي اليومين ال hyper، يلّي كلّها حياة، يلّي كلّها حب، يعني تقول أنا ما بدّي فرجي إيني إنّه أنا زعلانة، أنا مقهورة، أنا بدي فرجيه هيدا الحب، يلّي هو محروم منه، لأنه صراحة كرم صح تقشّط من إمه بس كرم كان عم بربّي حاله، لأنّه ما في ستّ مسؤولة، ما في جدّ مسؤول، ما في بيّ مسؤول، ما في عمّ مسؤول، ولا شي هني بس قشّطوها ياه بس ليخلّوه معاهم هني... فهي لأ كانت عم بتعوّض، هي عم تعوّض ب ٢٤ ساعة. وكرم حتى لو اليوم بعيد عنّا، نحن مؤمنين بأنه رح يكبر ويكون ع خطى والدته يلّي حاربت الكون لأجله ورح يفتخر فيها.

فهول الـ ٢٤ ساعة كانوا عبارة عن منارة حب، منارة أمل، منارة ثورة، نضال، أنا كرمال كرم عم بعمل هيدا الشي، كرمالك يا ماما، أنا ما تركتك وما بتركك. وكان في كتير تحريض على إختي، حتى التحريض طال إختي بالمدرسة يلّي كان فيها الصبي يتعلّم، ممنوع إختي تزور إبنها بالمدرسة، ممنوع تعرف شي عنه، وكان على طول حتى طليقها يهدّدها، إنّه أنا بدي إحرمك من الصبي حتى لو إنت معكِ حق رؤيا ٢٤ ساعة أنا بدي إحرمك الصبي، أنا القانون معي والشرع معي.

ف.ف.: بعد ما توفّت نادين، بقي كرم عم يجي لعندكن أسبوعيًا؟

ن.ج.: لأ، أوّل ما توفّت نادين، حتّى لمّا توفّت نادين، تمّ نقل الخبر لكرم مش عبرنا، عبر ستّه، وبطريقة كتير مخزية، بطريقة كتير عنيفة، بطريقة كتير بشعة وخاصّةً إذا هيدا الصبي كان مقضّي ٢٤ ساعة من الحب والعطاء والرحلة مع إمه، كانوا عاملين camping [رحلة تخييم]. وقت عرفنا بالموت، نحن كبار وصرختنا وصلت للكون، أنا لمّا بيّي عرف إنّه أختي ماتت صرخ صوت واحد، "بس يا نادين"، المنطقة كلّها طلعت تدق عالباب [بصوت يختنق بالدمعة] شو باه؟ [تصمت ثم تكمل وهي تبكي] فهي قالتله للصبي بدي آخدك عقبر إمّك، هيك دغري فجأةً، ما مهّدت له أو حكت له أو أيّا شي. لأ، قالتله بدي آخذك على قبر إمّك.

طبعًا يحكي كرم عن معاناته... وكان كرم بيعرف إنّه إمه ما تركته، بس إمه انجبرت تتركه. وقت ماتت نادين، وبكل وقاحة، قرّروا إنه هني يشاركونا، يشاركونا بالعزاء، يشاركونا بالموت، يشاركونا بالحزن، بدهن يجوا لهون يكونوا موجودين، وصاروا يبكوا على إختي إنّه كيف راحت، مع صدمة كل العالم الموجودة هون إنّه إنتو شو عم تعملوا، هيدي المرا ماتت بحرقتها على إبنها، هيدي المرا ماتت بحرقتها على إمها، إنتو حرمتوها إبنها لوين جايين، كان بقلب البيت هون رح يصير في ثورة، رح تطلع الصرخة، شو عمتعملوا

هون، كيف إنتو بتفوتوا لهون...هلق يمكن تقليلي إنت حاقدة، أنا حاقدة إيه لأنّه هني سببوا لنا القهر والعذاب والحرمان والظلم والاضطهاد، إيه، أنا بسببهم خسرت إختي.

ف.ف.: بس مشاعرك مشروعة، دايمًا مشاعرك مشروعة، ما حدا في يحاسبك عليها.

ن.ج.: أنا بسببهم خسرت إختي، خسرت إمي، إمي ماتت بقهرتها على ابنتها، إمي يلّي كانت عم تتقدّم بعلاج ال cancer، بس ماتت إختي تراجعت مليون درجة، إمي يلّي كانت تبكي على فراش المرض وتقول أنا بخاف إخسر ولادي كلّن وأنا عفراش المرض ما إقدر إتحرّك، بنت فدتني بحياتها، وبنت ضحّت بحياتها وبنت مشتتة وشاب مشتت وعيلة تشتتت، وزوج عايش صراع بين مرا مريضة وبين ولاد ضاعوا وبين بنت ماتت.

أنا هاي محفورة بذاكرتي هول الحكايات يلّي إمي حكتهن. كان عندها كمان، مع ال cancer، عبّوا الروايا ميّ، أنا هاي محفورة بذاكرتي، كل شي، أوك صح حياتي وذاكرتي واقفة بلحظة معيّنة على شي إسمو خسارة إخت وإم، وما قدرت تتقدم ذاكرتي لقدّام، حرفيًا وقفت ذاكرتي، وقفت بس على شي إسمه موت، على شي إسمه صدمة موت، موت نادين [بصوت مرتجف]، وعذاب إمي والمرض، موت إمي، من هونِ بلّشت أنا ذاكرتي. ما كنت عم بقدر إتذكّر قبل، قبل الحادث، أنا هلق حكيت قبل الحادث، حكيت عن طفولتنا، وهاي أول مرة. [تنهّد].

ف.ف.: لما كنت عم بعمل مقابلات التاريخ الشفوي مع رفقاتها، الكل حكا لي عن طبخ لنادين، شو هو السر بطبخها لنادين؟ يعني سارة، صفا، نهاية، كلهن كان يقول إنه نادين عليها نفس بالأكل ما صاير متله. خبرينا عن نادين وعلاقتها مع الأكل.

ن.ج.: نحن هيدي قصة النفس بالأكل، تاتا الله يرحمها، إمّها للماما، والماما نفسها كتير طيب بالأكل، ونحن أخدنا هيدا الشي منهن. يعني ماما اشتغلت عإخواتي بمسألة إنّه يتعلموا الطبخ. كنت قول لها، أنا ليش بدي عذّب حالي؟ [تضحك] إنّه ما خلص إنتِ، الله يعطيكي الصحة والعافية، بجي أنا وعيلتي بتغدى أنا وياكن وإخواتي، فما إلي خلق أقعد أنقر كوسى وأعمل ملوخية، فهي قالتلي أوك اصطفلي متل ما بدك. ما كانت تقول لأ. نحنا كنا مدللين عند أهلي.

فبمسألة الأكل، نادين تعلّمت فن الطبخ من ماما والنفس الطيب، وإذا ما زبطت الأكلة معها تضلها تشتغل عليها لتزبط معها متل ما هي بتحب. كان حبها وشغفها بالأكل. حتى مثلًا يمكن تلفّلك سندويش عاديّة بس إنّه نفسها فيها، فتحبّي تاكلي من تحت إيدها.
هلق ذكرتيني في أكلات أنا كنت كتير

حبهّن من تحت ديّاتها خاصّةً الكبّة النيّة، وكبة البندورة والبرغل عبندورة، هاي الأكلات، حتى نادين كانت كتير تحب اللوبيا بزيت المحرحرة، البرغل عبندورة، كانت كتير تحب الكاتشاب والبطاطا المقليّة. أول أكلة عملتلنا ياها بالبيت إسمها الستروغونوف، أكلة بتعقّد، كانت كتير طيبة، نحن ضلينا عيومين ناكلها قد ما كنا مبسوطين فيها، وعلّمتها ياها للماما. كانت الأكلات الجديدة تعلّمها للماما – نحن نقول لها بلا ما تتعذبي بس تجي نادين بتعملوها تنيناتكن سوا، يعني هلق ذكرتيني وشهّيتيني، شو بدي أعمل [تضحك].

ف.ف.: طيب كمان رح نكتفي اليوم بهيدا القدر لأن مش هيّن الخوض بكل هذه الذكريات والمشاعر، [تتنهّد] حوقّف التسجيل.

لا الاحتلال راح
ولا نادين عاشت

مقابلة مع نهاية قواسمي

فاطمة فؤاد: نحن هلق باجتماع على zoom مع نهاية القواسمي، المتواجدة حاليًا بتكساس وأنا فاطمة فؤاد ببيروت كان بدي إسألك، بما إنّه نادين ما عادت موجودة معنا نحن بدنا نجرب من خلال هالمقابلة أن نرسم صورة عن حياتها، فأنتِ من خلال عشرتك معها كيف بتتخيلي كانت طفولتها ومراهقتها مثلًا؟ يعني شو هي الصورة يلّي براسك، يلّي مش ضروري تكون حقيقة، بس الأثر يلّي بقي من أحاديثكن بذاكرتك.

نهاية القواسمي: شوفي من تجربتي مع نادين... إنتِ عم تحكيني عن طفولتها، أنا كنت شوف نادين طفلة طول الوقت... بالرغم من إنها صارت إم ومن قيادات الحركة النسوية بلبنان وبالعالم العربي بس كانت تضلّ بنظري طفلة. هيك كانت علاقتي معها، كنت متل الأخت الكبيرة أو الأم لإلها... فبتصور إنها كانت هيك طول عمرها وما تغيرت بقيت هالطفلة، هاي اللحوحة يلّي بدها أشيا، يعني أنا مثلًا ما كنت أعرف قول لأ لنادين شو ما طلبت ما بعرف أقولها لأ. ولما بدها شي بتضلها تنق متل طفلة زغيرة. إنتِ بتعرفي إنّه نحن لما نكبر منعرف إنّه في سقف لتوقعاتنا وأيش ممكن نحصل عليه منبطل متل الزغار "بدّي بدّي بدّي ماما ماما ماما"...[تضحك] فهيك أنا بشوف نادين طفلة زغيرة ملانة شوي "مكلبظة" عم تركض ورا إمها.

ويعني مين كان بيضحّكني إلّا هي؟ ضحكتها كانت من أحلى الضحكات بحياتي، بحياتي ما رح أنسى كيف كانت تضحك، متل بنت صغيرة عمرها خمس سنين بتضحك كانت وبس تسمعيها تضحكي، يعني غصبًا عنك بتضحكي حتى لو بتكون حياتك كلها جحيم نار مولّعة غصبًا عنك بتضحكي، بتنسيك همّك كانت. وكل الصعاب كانت تستسخفها إنّه لأ فينا نعمل، فينا نغير هالشي، فهاي كمان إنّه الأمل... بتعرفي كلمات درويش نحن منخترع الأمل من العدم فنادين كان عندها نفس الأمل هاد كانت تخلقه من العدم، "هذا الأمل الذي لا شفاء منه" فهي كانت نفس الشي وراح عليه نص عمره يلّي ما التقى بنادين.

ف.ف: والله هيك شكله

ن.ق: خسارة إنّك ما كنتِ تعرفيها منيح لنادين

ف.ف: فعلًا خسارة وممتع جدًا حديثك، يعني عم جرّب اتخيّل أحاديثكن سوا وكمان كيف كانت

ن.ق: أووو ياييي ياييي [تتذكر بفرح] كانت تقريبًا ليلة بعد ليلة تبعتلي فيديو، تتلفن عليي فيديو وعلى مسنجر وتقعد، تكون قاعدة بقميص النوم وعم نحكي أنا وياها وعم تدخّن ونضحك وتضحّكني معها. وضعي كان كتير مزري بفلسطين لا عم بقدر أشتغل، الاحتلال سحب هويّتي،

سحب إقامتي -لأنّه بتعرفي نحن الفلسطينيّة مش أهل البلد- ولا كنت قادرة أشتغل ولا أتحرك ولا أروح وأجي وعانيت من إكتئاب شديد فترتها وهي يلّي كانت تضحكني رغم كل هالقرف يلّي كنت فيه كانت تضحّكني وتعطيني قوّة إنّي أستمر. كتير كتير بفتقدلها لنادين [تصمت] كتير...

كنت متمنية إننا نتلاقى برا العالم العربي أنا وياها، لأنّه كانت بآخر فترة عم تخطط تترك لبنان لأنها تعبت كتير وكانت مخططة إنها تطلع مع كرم، وكنا عم نفكر أي دولة أوروبية ممكن تستقبلها كلاجئة. كنا نحلم إنّه هي تطلع على أوروبا وأنا أرجع على أميركا وبعدين أرجع وقّف عإجريّ وحوّش مصاري ونتلاقى بشي مطرح بأوروبا أنا وياها ولمرّة نقدر ننبسط بدون كل الوجع يلي حسّينا فيه بالعالم العربي، إنّه ناخد كرم مشوار ونشتريله إنتو بتسمّوه غزل البنات نحن بفلسطين منقله شعر البنات، كانت تحبّه كتير [تضحك] كنت متمنية هاي اللحظة، كتير كنت متمنّيتها.

ف.ف: قلتِ شي من شوي إنّه كنتِ تحسّي نادين كأنها أختك الزغيرة وأنتِ متل أختها الكبيرة أو كأنك إمها حتى وقلت إنّه هي بقيت طفلة... طيّب كيف كانت نادين الأم؟ كيف كنت تشوفيها كأم وإنتِ كمان إم حسب ما بعرف، عندك صبية صح؟

ن.ق: بنتي عمرها أربعة وعشرين سنة، صارت امرأة [تضحك] ونادين كان عندها مش بس حب عادي كأم لابنها، كان عندها هوس وجنون فيه لكرم. كرم كان الأساس في حياتها، اليوم يلّي بتكون مع كرم ما بدها تعمل أي شي ثاني. بتحاول تملأ النهار بمليون شغلة كان نفسها تعملها معه كل الأسبوع، كان نفسها تعملّه سندويشته للمدرسة، كان نفسها توصّله عالمدرسة أول يوم مدرسة. يعني أنا بالنسبة لإي هاي كانت أحداث مهمة، لما آخد بنتي على أول يوم بالمدرسة، وصّلها على باب المدرسة ووقّف معها قبل ما يفتح الباب، وشجّعها إنّه معلش رح يكون نهار حلو ورح تنبسطي.

ونادين عفوية تخيّلي حدا يكون عفوي لهالدرجة إنها تنجبر تخبّي مشاعرها، توقفها، كل خططها وكل الأشيا يلّي أي إم بتحب تعملها مع طفلها، إنها تحطّها على pause لغاية ما تشوف كرم. شوفي قديه بيوجّع كان هاد لإلها يوم بيوم.

ف.ف: كيف بتتذكّريها بفترة حراك ٢٠١٥ ؟

ن.ق: آخ يا ربّي! بتذكّر لما في يوم طلعت صور من المظاهرات، كانت نادين عالأرض، ضربوا عليهن غاز مسيّل للدموع وكانت عالأرض وحدا رافع اجريها عم يحاول يشيلوها عن الأرض، فبقلها: ولي هاي

إنتِ؟؟ هيك صار معك إنتِ؟ بتضحك هي طبعًا، إنّه آه هيك أنا صار معي... كانت غميانة عالأرض من الغاز! ولما سألتها كانت عم تضحك يعني على الوضع! كان ممكن تختنق كان ممكن تموت، بس عم تضحك على عالوضع، إنّه ما فرق عندها وكانت تنزل يوم بيوم وتتظاهر مع الناس.

كل يوم كانت تنزل، كان عندها هالفرح متل عرس بالنسبة لإلها إنّه نازلين نحن على المظاهرات، نازلين نخبّط الدنيا، بدنا نغيّر، كان كتير جميل أشوف هالنشاط، هالشغف، إنها ما فقدت الأمل، إنها ضلّت مستمرة لآخر لحظة وكنت كتير انبسط أشوفها هي ونورهان حمّود حبيبتنا التانية يلي فقدناها [بحزن]. تنيناتن كانوا دايمًا يعطوني أمل...

كانت أيامي كتير جميلة وهي يلّي شجّعتني أجي عبيروت، إنّه في ثورة جميلة في بيروت، في ناس عم تنزل بالشارع، لأنّه أنا ما كان بدي أروح على بلد عربي نايم. كان بدي أروح على بلد عربي فيه ثورة انضمّلها. أول يوم وصلت على بيروت، تاني يوم نزلت عالمظاهرات يعني ما استنّيت وأكلت غاز وقتها مع الشباب [تضحك] كنّا عند باب المجلس. كتير ذكّروني بأيام فلسطين لما كنا نتظاهر ضد الاحتلال، فهاد يلّي شجّعني إنّه نادين، نورهان، يوم بيوم ينزلوا عالشارع وهنّي يلّي شجعوني أنزل على بيروت، لأنّه كان بدّي أكون من ضمن هالحراك الوطني لحتى استرجع بيروت واسترجع لبنان ونبني لبنان حلو، كنت بدي أساهم فيه.

مش كل الناس بتعرف بس أنا فيني دم لبناني، ست إمّي من صور فيعني في عندي نوع من انتماء للبنان، ١٢.٥٪ من دمي لبناني. فبالنسبة لإلي هي كانت معركتي كمان مش بس كفلسطينيّة، جزء مني لبناني كمان، فكنت حابة كون جزء من هالمعركة. ونادين ونورهان شجعوني أكتر انزل على بيروت وأكون جزء منها، وحبيت أقضّي وقت أكتر معهن لأشوف شو عم يعملوا هول الصبايا يلّي من عمر بنتي كيف عم يغيروا وأتعلّم منهم أشيا جديدة وأشاركهن معرفتي لأن أنا كنت أشترك بفلسطين.

شاركتهن الأشيا يلّي أنا بعرفها: كيف يتجنّبوا الغاز، البصل، العطر، كيف يحملوا شنتايتهن مش على ضهرهن بلاش الأمن يسحبهن منها، إذا بيحملوها لقدام ما فيه الأمن يسحبهن منها لأنّه هم بيركضوا والأمن وراهن فهيك أشيا كنت حابة أشاركهن فيها حابة أساعدهن يتجنبوا الاعتقال، يتحنبوا الاغماء من الغاز، لحتى يقدروا يستمرّوا، ما يشربوا مي كتير لأنّه [تضحك] المي أصلاً مؤذية مع الغاز المسيل للدموع بتزيد الحروق وكمان بيصير في احتياج يروحوا عالحمام كيف بدك تتركي المظاهرة وتروحي تفتشي عالحمام [تضحك] فحتى أشيا بسيطة متل هاي كنت حابة أشاركهن فيها وأكون جزء من هالحراك الجميل وقتها.

ف.ف: أيمتى جيتِ على بيروت أول مرة؟

ن.ق: أول مرة كانت بنيسان ٢٠١٥، اجيت عشرة أيام وقلت بدي أشوف بيروت قبل ما قرر أنقل عليها. وكنت بايتة في صيدا بالأول عند صديقة فلسطينيّة وكنت أطلع على بيروت كل يوم أتجول فيها.

أول شي زرته كان مخيم شاتيلا لأنّه حلفت أول ما بوصل على لبنان هاد أول شي بدي أشوفه. عملت جولة مع صديقتي الفلسطينيّة يلّي لأول مرة بتدخله، تخيّلي من صيدا لأول مرة بتدخل شاتيلا. لفّينا فيه وزرت مقبرة شهداء المجزرة. لفيت التقيت بناس، بأطفال، أعطيتهم تراب من فلسطين كنت جايبته معي، تراب من القدس. ولد زغير اسمه أحمد من يافا لعبت معه كرة قدم وأعطيته كيس من التراب وراح ركض فيه عالبيت يفرجيه لإمه وكمّلت أنا وصديقتي، اسمها فاطمة عفكرة، بالشارع عم نتمشى ما لقيت إلا أحمد عم يمشي جنبي بقلّه شو في؟ قال ماما بعتتني اشتري شغلة من الدكان وإذا بدك شي بشتريلك تخيّلي هالزغير هاد قال بده يشتريلي شي.
كان كتير جميل ألتقي بأهلي اللاجئين لأنه أنا كمان لاجئة بس ما طلعنا برا فلسطين لجأنا لجوء داخلي. بوقتها التقيت بنادين شخصيًا. كنا دايمًا وأنا في نيويورك أعمل قلوبة، كانت مقلوبتي معروفة في الشباب والصبايا في نيويورك كنت أعملها في نشاطات... فقلتلهم بدي أعملكم مقلوبتي في بيروت بما إني موجودة ورحت اشتريت طنجرة كبيرة هيك هلقد [تشير إلى الحجم] وصينية كمان لأن لازم تقلبيها واشتريت كل الأغراض وحملتهم، انهدّ حيلي لوصلت عالبيت وكنت معلنة عفيسبوك أنا عاملة مقلوبة يلّي بده يجي يجي. أنا كنت أعرف نادين من خلال الفيسبوك بس ما التقينا شخصيًا وبتبعتلي على استحياء إنّه "فيي اجي؟"، قلتلها يي طبعًا تعالي بدك عزيمة إنتِ؟ فوقتها التقينا شخصي لأول مرة في بيت صديقة عملت المقلوبة عندها وقضينا سهرة كتير كتير جميلة وطبعًا ضحكنا كتير لأنّه نادين ما فيها تقعد أبدًا بلا ما تضحك وانبسطت كتير عالمقلوبة. وكانت رايحة حاكية للكل في صحافية جاية من القدس على بيروت يلا نروح نلتقي فيها وهالشي كتير يعني ضحّكتني لما قالتلي هيك. وخلص شبكت بيناتنا... ما كان فينا نفترق بعدها، فهاي كانت في نيسان ٢٠١٥.

ف.ف: ولأيمتى بقيتِ ببيروت؟

ن.ق: رجعت بآخر شهر ٩ عليها، لأن طبعًا نادين قالتلي غصبًا عني لازم أجي وأكون بخطبتها وبقيت فيها لشهر ٦ السنة يلّي بعديها.

بعدين صديقة فلسطينيّة أقنعتني أنزل على فلسطين لأنه أنا

لما –ما بعرف إذا بتعرفوا هالشي– لما ولاد القدس يتركوا، بيسافروا، بدن يطلعوا مثلًا على الدول العربية بياخدوا جواز سفر أردني مسمحلنا ناخد جواز سفر أردني مؤقّت، منلفّ فيه بالعالم العربي، بس لحتى نطلع عن طريق مطار اللد، الاحتلال بيجبرنا نستخدم شي اسمه Laissez-passer/إذن مرور وهاي لمدّة سنة بتنتهي مفعولها فلازم نرجع قبل بسنة. ويلّي بده يسافر على دول أوروبيّة وعالغرب بالجواز الأردني بياخد تصريح مسموح له يترك البلد تلات سنين ولازم يرجع قبل ما يخلصوا التلات سنين.

فأنا كنت أرجع قبل ما يخلصوا التلات سنين لحتى أجدّد هالتصريح. ما كان فيني أرجع على فلسطين بشكل دائم، بنتي وزوجي السابق كانوا في أميركا ما فيني أنقل على فلسطين لأن ما رح أقدر أعطيهن إقامة، بيضلّهم سوّاح في فلسطين. كفلسطينيّة ما عندي القدرة القانونية أعطيهن إقامة يبقوا معي في القدس، فميشان هيك اضطريت أترك فلسطين في البداية، عشان بنتي. فكنت أرجع كل – قبل ما يخلصوا التلات سنين، بس آخر تصريح طلعت فيه ما كان عندي مصاري أرجع على فلسطين كان وضعي المالي كتير سيء في أميركا ومرقوا تلات سنين، وعرفت إنّه تصريحي انتهى. فما كان في إمكانية أرجع أدخل فلسطين إلّا بالجواز الأمريكي لأنّه التصريح انتهى وبالعادة بفرجيهم اياه على الجسر، لما منطلع من الأردن وبيسلّمونا الهوية، هويّة القدس ومنعطيهم التصريح.

هيك الاحتلال بيعمل. فخلصوا التلات سنين هدول وما رجعت وما كان في إمكانية أرجع بالتصريح، واضطرّيت أدخل بالجواز الأمريكي. هلق أنا لما جبته، سألوني وين خلقانة قلتلهم بالقدس قال يعني – ما بدي أقول اسم الاحتلال، فقلتلهم لأ ما فيكم تحطوا هال– ما رح أسمحلكم تحطوا هالاسم على جوازي، أنا ما خلقت في هالقرف هاد، فضلّهم ينبّشوا لغاية ما لقيوا الضفة الغربية [West Bank] فحطيت بجوازي الأمريكي إنه أنا خلقانة بالضفة الغربية. فأول ما وصلت على الجوازات للاحتلال بتقلي وين بالضفة؟ هلق أنا ما فيني أقلها رام الله مثلًا قلتلها القدس، قالتلي وقّفي عجنب وأخدوني عجنب.

وصلت أنا يمكن الساعة ١٢ على الجسر طلعت خمسة ونص منّه، خلّوني طول الوقت استنّى، حقّقوا معي، سألوني شو عم بعمل في بيروت، أخدوا رقم تلفوني ببيروت وكانوا بدن يختموني جواز سفري مباشرةً لحتّى يمنعوني أرجع على بيروت لأنه طبعًا إذا لبنان شافت الختم ما رح يدخلوني. فكان قصدهم يرعبوني لأنّه أنا بعرف صاروا يعطوا ورقة خاصّة للفيزا. هلق هي ما كانت فيزا هني كذبوا عليّ قالولي فيزا لأن أنا ما بعرف عبري، كانت ورقة دخول عادي إنّه أنا بنت القدس راجعة عالبلد، وما انتبهت إنها مش فيزا لأن ما بعرف عبري.

بالآخر دخّلوني وقالولي إنّه لازم أروح على وزارة الداخلية لحتى أشوف شو بخصوص هويّتي، لأنّه هويّتي موجودة فيها، بطّلت على الجسر، لأنّه كنا نتركها عالجسر لما منسافر، فنقلوها عالداخلية بالقدس. وقالولي وقتها محاميّي إنّه ما تروحي لأن اذا بتروحي بيسحبوا الهويّة منك وبيسحبوا إقامتك في القدس فما رحت وأنا وراجعة على بيروت بس انتهت زيارتي للقدس. أعطوني أمر بسحب هويّتي، أعطوني ٢١ يوم أرجع على البلد أطالب باسترجاع هويّتي فرجعت على بيروت وكان معي بس ٢١ يوم.

فقلت لصحابي بدي أبيع كل أغراضي ويلّي بده شي يجي ياخده ما عنديش مشكلة، وأنا راجعة على فلسطين. فقضّيت عشر أيام في بيروت ورجعت على فلسطين بعديها عن طريق قبرص، ما كان بدي أدخل عن طريق الجسر، ما بدي اتبهدل كمان مرّة لأنّه المطار أسهل شوي. كنت مرعوبة ما يدخّلوني ف بالجوازات ختمتلي اياه وقلتلها هاي فيزا؟ قالتلي لا، أنتِ من أهل البلد، أنتِ رجعتِ. بس طبعًا استرجاع الهويّة كتير كتير صعب [تتنهّد] بيكون في شروط ما قدرت أوفّيها، لأن بدهم منّي أوراق ما بقدر أجيبها إلّا إذا كنت عايشة في أميركا يعني شروط تعجيزية لحتى ما أقدر استرجع هويّتي ووقتها تركت بيروت كان ب-أظن بنص شهر ٠٨- ٢٠١٦... يعني قضّيت عشر أشهر في بيروت.

ف.ف: على باي أعرف أكتر عنك— إذا بتحبي تشاركي.

ن.ق: عنّي؟ آآآآخ [تتنهّد] أنا جيل تاني لاجئ فلسطيني –
[ينقطع الاتصال ثم يعود]

ف.ف: يمكن يرجع يقطع بعد عشر دقايق، يمكن ترجع تقطع الكهربا، بعد في كم دقيقة

ن.ق: [تضحك] صارت نص الليل عندك؟

ف.ف: صح!

ن.ق: أوكي خلّيني عالسريع. متل ما حكيت أنا جيل تاني من الأجيال الفلسطينيّة، إمّي وأبوي كانوا عايشين في منطقة التوري يلّي هي من القدس، حي من أحياء القدس وعلى طريق الخليل لأن أصلهم هني من الخليل، عيلتنا خليليّة. فلما إجوا على القدس، إجوا على أطرافها ما دخلوا في النص. وفي ال٤٨- تيناتهم تهجّروا إمي كانت في باص، طلعت في باص مع أهلها باتجاه الخليل ليرجعوا لبيت العيلة هونيك واضطروا يمرقوا من كفار عصيون مستوطنة هونيك وكانوا خايفين يطخّوا عليهم.

أبوي لسّا قصته مثيرة أكتر، هرب مع إمه وعمته ركض عالخليل، كان ماسك ايديهن تيناتهن عم يركض فيهم وكل صخرة ينطوا عنهـا كان الرصاص يـضـرب الصخرة يلي

كانوا عليها. كانوا مستهدفين طول الطريق لوصلوا للخليل. فأنا ربيت على هالقصص.

إبن خالتي يلّي بالخليل إنضم للمنظمة وكان الإيد اليمين لأبو جهاد وعاش في بيروت وكان في محاولة لاغتياله في بيروت. هو يلّي درّب دلال المغربي ونسّق للعملية مع أبو جهاد، طبعًا مش الكل بيعرف هالحكي عنّه لأن ما كان يطلع بالإعلام يقول أنا عملت وسوّيت فهو يلّي كان مرتّب لهالعملية وكان مسؤول مخيم ضبيّة في لبنان. فربيت على قصصه واستشهد للأسف سنة ٨٣ بعد ما طلع من بيروت، كان في اليونان اغتاله الموساد الصهيوني. ليفني كانت عم تراقبه، كانت تشتغل في الموساد، كانت تراقب حركاته ودلّتهم عليه. فعندي ثار شخصي مع ليفني أنا ما راح أنساه عدا عن الثار الفلسطيني كامل فهاي القصص يلّي ربيت عليها.

درست في مدرسة بنتها جميلة القدس الست هند حسيني، بنتها بال٤٨- بعد مجزرة دير ياسين لما الاحتلال قتّل عيلات الأطفال ورماهم في باب المغاربة في البلدة القديمة وكانوا واقفين بالشارع عم يبكوا ما في حدا كان عم يساعدهم، إجت هي أخدتهم على شقتها. كانت هي أول إمرأة مقدسيّة بتستأجر شقة لحالها مع إنّه عندها بيت العيلة الكبير يلّي فيها تعيش فيه. بس كانت مستأجرة شقة لحالها، كانت أول وحدة بتستقلّ في بيت لحالها. فأخدتهم لعندها عالبيت حمّمتهم وطعمتهم وراحت بعدين لوجهاء القدس لمّت مصاري منهم وطلبت من العيلة إنها تحوّل بيت العيلة لمدرسة وملجأ أيتام للأطفال هدول. وهاد الملجأ الزغير صار صرح أكاديمي كبير تدخل فيه البنت الفلسطينية من الحضانة تتخرّج بالجامعة وكل هاد بنته الست هند حسيني، وأنا درست في مدرستها فتربّيت كمان على هالقصص.

كانت تجي تنزل معنا لما كنا نتظاهر ونرفض ندخل عالصفوف بذكرى دير ياسين، يوم الأرض، ما كانت تجبرنا. كانت تجي تحكيلنا التاريخ وتطلب من أستاذ الرياضة، كان عنا أستاذ عبد اللطيف غيث، كان أسير كتير كان يعتقله الاحتلال. كان هو يدرّسنا تاريخ فلسطين لأن كان ممنوع ندرس تاريخ فلسطين في المدارس. فهم كانوا يعطونا تاريخ شفوي وكانت تجي تنضمّلنا، فهاد يلّي تربيت عليه، القضية، فلسطين، النضال، المنظّمة، الاحتلال كيف نواجهه، ولما كبرت قرّرت أدخل في مجال الصحافة لحتى أفضح الاحتلال وأفضح جرايمه ضد شعبنا...

مرّيت بقصص كتير مضحكة وقصص مؤلمة. غطّيت رجوع أبو عمار على البلد، كنا في غزة وقتها، هاد من أهم الاشيا يلّي غطيتها، إنه لأول مرة ودني [أذني] بتسمع صوت أبو عمار في الوطن ما مصدقة ودني في مشكلة فيها إنّه كيف أبو عمار عم يحكي في فلسطين! والتقيت فيه شخصي بالعيد، أول عيد لإله كان

بفلسطين. رحت عايدت عليه، ما كنتش بدّي أروح بس اصحابي قالولي لأ تعي، كان بنطلوني ممزّع هيك مخزّق، كيف بدي أقابل الرئيس هيك؟ قالولي تعي مش رح تفرق عنده، فرحت عايدت عليه وسلّمت عليه، بيقلّي تعالي هنا، بتعرفي بيحكي باللهجة المصرية لأن أهل غزة بيحكوا شوي مصري، ووقفنا جنبه وتصوّرنا وطبعًا ما أخدت الصورة لأنه رحت تاني يوم للمصور الخاص يلّي إله أطلبها، ضاعت الصورة بس الذكرى بعدها براسي.

غطيت إنسحاب الاحتلال من جنين. هاد كمان من أهم الأحداث يلّي غطيتها لأن انسحب بالليل الاحتلال الجبان لحتى يحرمنا فرحة إنّه نهار نشوفهم عم يطلعوا قدام عيوننا. فكان عددنا قليل يلّي كنا واقفين هونيك وركضنا باتجاه المقاطعة أنا والشباب يلّي انحبسوا في الزنازين هونيك وفرجوني. مثلاً واحد منهم قال لي "شايفة هاي المنطقة هون؟ شايفة كيف في حدود عالأرض؟ كان هون في زنزانة وانحبست فيها". فكانت، ما بعرف، مشاعر فرحة إنّه طلع الاحتلال وحزن ووجع لما يحكولي قصصهم، الأسرى المحررين يلّي كانوا واقفين عم يستنوا الاحتلال يطلع لحتى يروحوا على الزنازين أحرار، يلّي كانوا محبوسين فيها، ووقتها سرقت مفتاح ل— مفتاح كبير للزنازين. لأن ما كان بدي فلسطيني ينحبس في هاي الزنازين بعد اليوم، ولحدّت هلق بعده معي عليه الرقم ١٣. فهاي الذكريات كانت جميلة ومؤلمة في نفس الوقت، يلّي غطيتها، وغطيت كمان رجوع أبو عمّار على أريحا وأغلب الانسحابات غطيتها وغطيت طبعًا كل المفاوضات.

التقيت بشخصيات فلسطينيّة مهمّة متل بكفرحدا بعبد الشافي الله يرحمه، حنان عشراوي، أغلب القيادات الفلسطينيّة، التقيت فيها وحتى من حماس التقيت بالشيخ أحمد ياسين، بالزهّار، الرنتيسي الله يرحمه. كتير إلتقيت في ناس وأنا في فلسطين من هدول القيادات، وشفت إشيا كتيرة ولفّيت كل فلسطين من شمالها لجنوبها ما خليت منطقة تعتب عليّ. فلسطين كتير جميلة، كتير كتير جميلة، أجمل ما بتتصوري، برغم قذارة الاحتلال والقرف يلّي عم يبنيه فيها، بتضلّها جميلة وبعدها وبعده أثرنا فيها برغم - قد ما عم بيغير ويحاول يعني حتى الأسامي بيعملوها عبري، الأسامي الفلسطينيّة العربية بحولوها لشي عبري، يعني مثلاً عين الجدي، الجدي إنه الجديان كانت تشرب منه، من العين، سموه (إن غدي\en gedi) إنه مش كتير بتفرق لأن ما عندهم شي، ما عندهم تاريخ في هالأرض هي فكل شي إسم عربي بيحولوه لعبري، فبتضللها فلسطين غصبًا عنهم برغم كل يلّي عم يعملوه وأنا حبّيت أشوفها كلها على قد ما بقدر يعني.

لما رجعت آخر مرة اشتريت سيارة وقضيت أغلب وقتي عم ألفلف فيها، طلعت لراس الناقورة، للناصرة، لصفد يلّي هلق طبعًا أغلبها صهاينة، حيفا، يافا، عكا، وحتى وصلت للجولان بإذن أهله طبعاً لأن محتل. ما كنت أسترجي أدخله زمان لأن ما فيني استغلّ وجود الاحتلال فيه لحتى أزوره، مش من حقي كفلسطينيّة لأن هاي أرض سورية ولولا إجتني الدعوة من شباب وصبايا بالجولان والله ما دخلت، هني أعطوني فيزا أدخل، فما كنت أقبل زمان إنّي أدخل. وقدرت أشوف جمال الجولان، قديه رائع قديه شعبه وناسه حلوين كتير ووطنيّين وبعدهم بيحلموا بسوريا الإم ورافضين كل التهويل وبعدهم صامدين، فكان كتير جميل إنّه نلتقي ونتشارك قصص ويحكوا لي عن الألغام يلّي الاحتلال بحطّهم عالحدود لحتى يمنعهم، جبل الصيحات أخدوني عليه فرجوني اياه، محلّ ما كانوا يتلاقوا ويحكوا بعض.

ففي عندي ذكريات ما بتنتهي بفلسطين وقصص كتير أحكيها وبتمنّى شي يوم يكون عندي الوقت أقعد أكتبها لحتى الأجيال الجاية تعرف عنها وبحاول على قد ما بقدر على فيسبوك أنشر اشيا قبل ما تروح من ذاكرتي لأن بتعرفي مع الكبر بيضعف الدماغ، وقد ما في أفكار براسنا بتصير تنافس بعضها، منتسى. فعم بحاول على قد ما بقدر كل ما أتذكر شي أنشره لحتى حدا يسمعه ويتذكره وما ينتسى.

في عندي تجربتي كفلسطينية عادية وتجربتي كصحافية واختلطوا ببعض وما بعرف جبلتني بطريقة معينة هالتجربة أنا مش فلسطينية تقليدية وهلق لأني عشت بالغرب فصرت هجين، يعني حتى يمكن لو تحرّرت فلسطين استصعب أعيش فيها لأن أنا صرت اختلف شوي عن ناسها وهون كمان أنا ما بشبه الناس هون فما بعرف يمكن بدّي وطن جديد يناسبني أكتر ما بعرف، يعني مرات بفكر إنو حتى لو تحررت فلسطين مش رح اقدر أرجع أعيش فيها لأن اختلفت كتير عن كيف كنت زمان فيها، ويمكن أرجع إنّه الأمن والاحتلال ما رح يدوم وشايفته بآخر إيامه برغم كل التجبّر ويلّي عم يعملوه. هاد بتعرفي لما الوحش بتضربيه كتير وهو عم يسقط بيحاول يدمّر على قد ما بيقدر. أنا هيك شايفة الاحتلال هلق عم يتخبّط بكل المطارح، عم يزيد جبروته وتعنيفه لإلنا وتسلّطه علينا لأن عارف حاله رح ينتهي. فأنا متأمّلة إنّه في يوم أرجع يمكن ألاقي هيك بيت زغير في جنين، أنا بحبّ جنين كتير، مش بس لإسمها ومقاومتها، جنين سلّة الغذاء بفلسطين، أراضيها من أجمل الأراضي وخيّرة أرضها. وأنا بحبّ أزرع،أنا فلّاحة مع إنّه أنا خلقت في المدينة بس من جوّا أنا فلّاحة بحب أزرع. بدّي أجيب جاجات وعنزات وهيك شي

مـن هالحكـي، وأقضـي آخـر أيامـي قريبـة علـى البحـر لأن جنـين مـش كتـير بعيـدة عـن البحـر ومـش كتـير بعيـدة عـن بـيروت يعنـي كلهـا كـم سـاعة بالطريـق.

ف.ف: خطـر لي أنـت وعـم تحكـي إنـه لـولا القـدر والاحتـلال يمكـن كانـت نادين بتطلـع تـزورك ببيتـك بجنـين، بالمزرعـة

ن.ق: تخيّلي؟ تخيّلي تجي تزوريني... بتقعد تشرب شاي وأصرّخ عليها وَلي! [تضحك]

ف.ف: قلتِ إنّه حبيتِ نادين – حبيتِ بيروت على محبّة نادين امممم خبّرتيها عن فلسطين؟

ن.ق: [تضحك] كتير كتير – يعني لما كنت أحكيلها أنا بدّي إرجع عالقدس أزور أهلي تقلّي ما فيكِ تدخلي بالهوية الفلسطينيّة؟ إنّه أنا ما عندي الهوية الفلسطينيّة نحن أهل القدس ممنوعين ناخد الهوية الفلسطينيّة بس أهل الضفة وغزة بياخدوها، لأن الاحتلال ما بيعترف بسلطة السلطة علينا نحن كفلسطينيّة في القدس، إنّه بنظرهم نحن سكان مدينة القدس يلّي هي عاصمتهم! فما كان عنا هوية، كان عنا هوية الاحتلال المفروضة علينا. بس يصير عمرنا ١٦ سنة لازم نروح نجيبها بعدين بيعتقلونا بالشارع إذا ما كان عنا هوية، غصبًا عنا منروح منجيبها. مثلاً هي شغلة نادين ما كانت تعرفها لأن هاي التفاصيل اليوميّة بحياتنا ما كانوا يعرفوها بالعالم العربي ويعني ما بلـوم نادين لأن للأسف بلبنان ما بيحكوا بهاي التفاصيل فكنت أشرحلها هاي القصص، إنّه كيف الفرق بين الضفة وبين غزة يعني حتى بأرقام السيارات الضفة كانت أرقامها بتختلف عن غزة والقدس بتختلف عن باقي الضفة. وكنت متمنية شي يوم آخدها معي ألفّفها بالقدس ونروح نقعد على سور عكا، وآخدها طعميها كنافة عند جعفر في البلدة القديمة، وناكل شاورما في شارع صلاح الدين، ونكزدر، وآخدها على سور القدس، نلفّ تشوف القدس من فوق، كتير حلو المشوار هاد. في أشيا كتيرة كنت حابة أعملها معها بفلسطين، بأي مطرح. شو كنت متمنية بفلسطين وخصوصًا بالقدس بس لا الاحتلال راح ولا نادين عاشت.